Mağallaẗ Al-Itiḥād Al-ʿām Lil Aṯārīyin Al-ʿarab (JGUAA)
Received at: 2023-11-14 Accepted: 2024-3-10 Available online: 2024-4-1

رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز

A Journey Through the Tihama, the Asir, and the Hijaz Mountains

أحمد بن عمر آل عقيل الزيلعي

أستاذ غير متفرغ قسم الآثار بكلية السياحة والآثار – جامعة الملك سعود (السعودية)

Ahmad Omar Al-Aqil al-Zaylai

Professor Emeritus, Archaeology Depatment College of Tourism and Archaeology- King Saud University (Saudi Arabia)

alzilay@gmail.com

الملخص:

نشر هذا البحث في المجلة الجغرافية (The Geographical Journal) في عام ١٩٤٧م من إعداد وَلْفْرِد ثَسِيْجَر، وهو رحالة بريطاني مشهور، يُوصف بأنه آخر عظماء الرحالة البريطانيين؛ وذلك لما قام به من رحلات ومغامرات في عدد من الأقطار، ومنها جزيرة العرب التي قطع فيها الربع الخالي مرتين في عام ١٩٤٦م وعام ١٩٤٨م، وزار قبل ذلك في عام ١٩٤٥م أجزاء واسعة من منطقة عسير، وتهامة، وجبال الحجاز بدءًا من القنفدة على ساحل البحر الأحمر، فمروراً بتهامة منطقة الباحة، ومنطقة عسير، وهي رحلة ثرّية جدًا، كان من نتيجتها هذا البحث الذي قدم فيه ثَسِيْجَر وصفاً دقيقاً للمجتمعات التي زارها، والأوضاع المعيشية لتلك المجتمعات بما في ذلك عاداتهم وتقاليدهم، ونظام أسواقهم، والسلع التي تباع في تلك الأسواق، ونظم الزراعة، والرعي، والحاصلات الزراعية، والحركة التجارية، والطرز المعمارية، ووصف البيئة النباتية، والحيوانية والطبيعية، وغير ذلك مما لا يستغني عنه أي دارس لتلك الجهات التي لم تلق عناية كبيرة من قبل الدارسين حتى اليوم، مما يعطي هذا البحث الاستقصائي أهمية كبيرة .

وقد قمت بترجمته إلى اللغة العربية بعناية ودقة وشمولية قدر المستطاع، وبحكم انتمائي موطناً وثقافة إلى تهامة، ومعرفتي الدقيقة بباقي المناطق التي زارها المؤلف، فقد عملت على استخدام المصطلحات المحلية كما يوردها المؤلف في النص، ثم عملت على شرحها في الهامش حتى يسهل على القراء فهمها، ولا سيما أولئك الذين لا ينتمون إلى البيئة التي يغطيها هذا البحث. ولم يقتصر عملي في هذا البحث على الترجمة إلى اللغة العربية، بل تعدى ذلك إلى تحقيق النص، وشرح غوامضه، والتعليق على بعض معلوماته بعد مقارنة تلك المعلومات بما ورد في المصادر والمراجع الميسورة عن بلاد عسير، والمناطق المجاورة لها.

الكلمات الدالة: تهامة؛ عسير؛ جبال الحجاز.

Abstract:

This research was published in The Geographical Journal in 1947 by W. Thesiger, a famous British traveler. He was described as the last great British traveler for his journeys and adventures in a number of countries, among them the Arabian Peninsula, where he passed the Empty Quarter twice in 1946 and 1948, and previously visited in 1945 a large part of the Asir region, Tahama, and the Hijaz Mountains, starting from al-Qunfudah on the Red Sea coast and passing by al-Bahahah and Asir Regions. This research was the result of this very rich trip, in which Thesiger gave an accurate description of the communities he visited, the living conditions of those communities, including their customs and traditions, and their market

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319
systems, commodities sold in those markets, agricultural systems, pastoralism and agricultural crops, the commercial movement, and the architectural models. He also described the plant environment, the animal and natural environment, and other indispensable lessons for those who have not received great attention by scholars to date; thus, this investigative research has great importance.

I have translated it into Arabic as carefully, accurately, and comprehensively as possible. As a native and culturally charged person, and with my accurate knowledge of the rest of the author's visits, I worked to use local terminology as described in the text and then explained it in the margin to make it easier for readers, especially those who do not belong to the environment covered by this research. My work in this research has not been limited to translation into Arabic, but has led to the text's investigation, the explanation of its ambiguities and the commentary on some of its information after comparing that information with the accessible sources and references of the Asir Region and their neighboring areas.

Key words: Tihama; The Asir; The Hijaz Mountains.

مُقدمة المترجِم:

نُشر هذا البحث في عام ١٩٤٧م في مجلة عالمية معروفة هي المجلة الجغرافية التي تصدر عن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، وهو من إعداد الأستاذ وَلْفَرِد ثَسِيجَر أو ثَسِجَرْ، آخر عظماء الرَّحَّالة البريطانيين في البلاد العربية*. ولد السيد ثسيجر في أديس أبابا بأثيوبيا في عام ١٩١٠م، وتعلّم في آيتون واكسفورد في بلاده، وعمل بعد تخرجه في السودان، والحبشة، وسوريا، ثم في الصحراء الغربية في أفريقيا. ومنذ أواخر الحرب العالمية الثانية، استهوته الرحلات والمغامرات، فقام برحلات عديدة إلى أقطار مختلفة، ومنها الجزيرة العربية، حيث قطع الربع الخالي مرتين في المدّة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٤٨م. وتسنّى له في عام ١٩٤٥م وفي العام الذي يليه، القيام برحلة عبر تهامة وعسير، وجبال الحجاز كانت نتيجتها هذا البحث الذي يُقَدّم اليوم للقارئ العربي بلغته الأم بعد أن منّ الله عليّ بترجمته وتحقيقه والتعليق على بعض غوامضه، وهو وصف دقيق حقاً للمجتمعات التي زارها، وتسجيل وثائقي للأوضاع المعيشية لأفراد تلك المجتمعات التي كانت في زمن تلك الرحلة أشبه ما يكون بعضها بدائيًّا أو مُتَبَدِّيًا، كذلك عمل ثَسِجَر على تسجيل أنظمة حياتهم المختلفة، بما في ذلك عاداتهم وتقاليدهم، ونظام أسواقهم، والسِّلع التي تُباع في تلك الأسواق، ونظم الزراعة والرعي، والحاصلات الزراعية والحركة التجارية، والطرز المعمارية، ووصف البيئة النباتية والحيوانية والطبيعية، بما في ذلك وصف وتحقيق أسماء الأمكنة، والجبال، والأودية، وغير ذلك مما لا يستغني عنه أي دارس لتلك المنطقة التي لم تلق عناية كبيرة من قبل الدارسين. وفوق هذا، فقد كان هذا الرحّالة دقيقاً في وصفه، وأميناً في تصوير المجتمعات التي زارها، وبعيداً إلى حدّ ما عن التعصّب والسخرية والتعالي الذي يتّصف به بعض الرحالة الذين سبقوه.

وكان لعمله في بعثة مكافحة الجراد، وحصوله على إذن من جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله – كما يتضح من خاتمة هذا البحث – الأثر الأكبر في إعطاء رحلته طابعاً رسمياً مكّنه من الاتصال بأمراء

المناطق التي زارها، وسهّل عليه حرية التَّنقل والحصول على المعلومات التي يريدها، ومع ذلك، فقد تجنّب وصف موائد الطعام، واستقباله من قبل هؤلاء الأمراء، أو الحديث عن نفسه ومغامراته، كما يفعل كثير من الرحالة، وركّز، بدلاً من ذلك وبصورة خاصة، على نقل المعلومات العلمية المجرّدة مما جعل عمله هذا – رغم قصره– رائدًا، ومرجعاً لدارسي المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة بمختلف تخصصاتهم.

وقد روعي في منهج الترجمة استخدام بعض المصطلحات المحليّة، ومن ثم شرحها في الهوامش حتى يسهل على القراء فهمها، ولاسيما أولئك الذين لا ينتمون إلى البيئة التي يتناولها هذا البحث. كما روعي بقدر الإمكان الحرص على أمانة النقل باستثناء إضافات طفيفة وضعت بين خاصرتين( ) وكذلك المحافظة على تعليقات المؤلف التي جاءت في إحدى وعشرين حاشية، حيث جرت ترجمتها، وإثباتها ضمن التسلسل العام لحواشي التحقيق والتعليق مع وضع الحرف (م)، أمام الحاشية الأصلية في النص الإنجليزي وتعني المؤلف؛ وذلك لتمييزها عن الحواشي الأخرى التي وُضعت من قِبل المترجم .

ولم يقتصر هذا العمل على الترجمة إلى اللغة العربية فقط، بل تعدّى ذلك إلى تحقيق النّص، والتعليق على بعض معلوماته بعد مقارنة هذه المعلومات بتلك التي وردت في المصادر والمراجع الميسورة عن بلاد عسير، والمناطق المجاورة لها. وقد جرى تزويد هذا البحث بقائمة شاملة بأسماء هذه المصادر والمراجع حتى يُسهل الرجوع إليها عند الحاجة. ومع ذلك فلن يخلو هذا العمل من هفوات أو سقطات يُرجي أن يغفرها القارئ الكريم، والله ولي التوفيق ..

نص الترجمة:

في سنة ١٩٤٥م، وبعد أن أمضيتُ شهرين بين أهالي نجد المتمسّكين بدينهم في شدّة وصرامة، مررت سريعاً عبر تهامة من جدة إلى جيزان، ومنذ ذلك الحين، ظلّت تطاردني ذكرى ذلك الشعب اللبق البشوش أو الباشّ، وبقيت تلك اللمحة الخاطفة حلماً يراودني حتى سنحت لي الفرصة مرة أخرى في سنة ١٩٤٦م، حينما اضطررت تحت وطأة حرارة الصيف إلى مغادرة الربع الخالي، والعودة مرة أخرى إلى تلك السلالة المحبّبة إلى النفس.

وبحكم عملي في وحدة الشرق الأوسط لمكافحة الجراد، قطعتُ خلال شهور إبريل ومايو ويونيه ٩٥٠ ميلاً، تنقّلت في أثنائها في تهامة، وعسير، وجبال الحجاز، من القنفدة حتى حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن، ثم إياباً من أبها إلى الطائف[١].

[١] في شهري يونية ويولية سنة ١٩٤٧م، سافرت على جَمَل عن طريق الساحل من القنفدة إلى صبيا وجيزان، ثم من أبي عَرِيْش إلى جبل قَيْفَا، ومن هنا صعدت إلى جَبَل بني مالك، ثم من جبال آل تَلِيْد المتشابكة والعديمة المنافذ إلى ظهران الجنوب، ومن الظهران زرت نجران، ثم من هناك سافرت إلى أبها. وقد ضُمَّت بعض المعلومات التي جُمِعَت عن هذه الرحلة إلى هذا المقال؛ انظر أيضًا:

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

بدأت رحلتي من وادي الأَحْسَبَة، إلى الشمال من القنفدة[٢]، وكان بصحبتي أحد أخوياء الإمارة، وهو شاب من الأشراف، وجمّالان، وأربعة من الجمال المستكراة التي تسير، حسب العرف السائد في تهامة، ورؤوسها مقطورة إلى ذيول بعضها بعضا، حيث لا يُسمح لتلك الجمال بأن ترعى، بل إن أفواهها تُكَمّم، بصفة مؤقتة، بسلال على هيئة شبكة ذات فتحات تُسَمّى فِدَامَة والجمع: فدائم[٣]، يُقدّم من خلالها العَلَف بواسطة اليد، وهو غذاء الجمال المكوّن من قصب الذرة الذي تحمله على هيئة حزمتين كبيرتين توضعان فوق الأحمال من الجانبين. وهي في الغالب لا تحصل على كفايتها من العَلَف، لما في ذلك من الصعوبة، وارتفاع التكلفة. وتستطيع جمال تهامة أن تنقل أحمالاً ثقيلة، ولكنها غير قادرة على الحركة فوق الصخور الوعرة، وسرعان ما يصيبها الحَفَا عندما تسير على أرضيّة حجرية. وهي ترد الماء يوميًّا، وأحيانًا مرتين في اليوم حينما يكون الجوّ حارًا، ويسافر هؤلاء الأعراب ليلاً خلال الصَّيْف، وحينما ينامون يتكوّرون فوق الأحمال التي على ظهور الجمال، وجمالهم تسلك الطريق دونما تردد[٤]. وبالرغم من حرارة الجَوّ، إلا أنني رفضت السفر بعد الظلام؛ لأن عملاً كهذا سيحول دون تدوين ملاحظاتي.

وفي طريقنا إلى المُخْوَاة، سلكنا وادي الأَحْسَبَة حيث يسكن الأشراف العَبَادِلَة في السهل الساحلي من هذا الوادي، ولكن سرعان ما يدخل الطريق في منطقة صخريّة وعرة، لا توجد فيها إلا قرى قليلة، وزراعة حقيرة. وكانت تقع أمامنا بمسافة بعيدة أصْدَار جبال الحجاز[٥]، وبالقرب منا تنتصب قمتان من الجِرَانِيت يصل ارتفاعهما إلى ٨٠٠٠ قدم، هما الجبلان المعروفان باسم شَدَا اليماني، وشَدَا الشامي، وهما من أحد

PHILBY, H. St. B., «The Land of Sheba», *The Geographical Journal*, VOL 92, London: The Royal Geographical Society, 1938, 1-21, 107-32; WEEVER, J., *Sheba's Daughters*, Whitening and Demonizing the Saracen Woman in Medieval French Epic, London: Routledge, 1998.

[٢] ألحَسْبَة، أو الأَحْسَبَة: وادٍ يقع إلى الجنوب من وادي نَاوَان ، وإلى الشمال من وادي قَنُوْنَا، وهو ينحدر من جبال السروات، ويصب في البحر الأحمر، وترفده عدد من الشعاب، ويسكن في أعلاه بعض فخوذ بني عُمر، وغامد الزَّنَاد. وفي أسفله الأشراف العبادلة، وبعض فخوذ زُبَيْد؛ انظر: السلوك، علي بن صالح، *المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد غامد وزهران)*، بيروت: منشورات دار اليمامة بالرياض، ١٣٩١هـ، ٤٦.

AL-ZAYLAʿĪ, «The Southern Area of the Amirate of Makkah», *Ph.D. Thesis*, University of Durham, 1983, 193 - 198.

[٣] هذه السِّلَال تُعرف محليًّا باسم الفَدَائم (مفرد: فِدَامَة)، وهي تُصنع أو تُوْضَن من الطُّفِي، أو الحَصِير المستخرج من ورق أشجار الدوم الذي ينتشر بكثرة في تهامة.

[٤] الخِيّ: هو الشّداد الوحيد الذي يُستخدم في تِهَامَة، وهو يوضع على امتداد ظهر الجمل بكامله. (المترجم) يُصْنع الخِيّ من الحصير الذي يُحْشَى بنبات الحَلْفَا، أو العَلَال (البَرْدِي) بعد خياطته بإحكام بحبال تُصنع أيضاً من الحصير، أو من لِحَاء شجر السَّلَم، أو المَرْخ. وتثبّت على جانبيه عصاتان قويتان ذات طرفين بارزين، تُعرف الواحدة منهما باسم "المِنْضَاح"، وتلفّ عليهما حِبَال التحميل الغليظة أو الحُجُز (جمع: حِجَاز). ويُدَعَّم الخِيّ من الأمام بأداة مثلثّة الشكل تُعرف باسم "الشَّغَبَة"، وهي تُصنع من خشب الأثل أو السدر.

[٥] الأَصْدَار : جمع: صَدْر، وتُطلق على المنطقة المشرفة على تهامة من جبال الحجاز؛ انظر: السلوك، *بلاد غامد وزهران*، ٥١.

المعالم البارزة التي يسهل التعرّف عليهما من بعيد[٦]، وينمو شجر البُنّ على هذين الجبلين، بالرغم من أنه لم يُسْتَنْبَت حتى الآن على سلسلة الجبال الرئيسية الواقعة إلى الشمال منهما.

(لوحة ١) العشش، نموذج من المساكن في تهامة عسير.

(لوحة ٢) القرية والزراعة في بلاد قحطان الواقعة على مرتفعات جبال الحجاز.

وتقع المُخْوَاة، بين شَدَا الأسفل والأصدار في بقعة من الأودية المتشابكة، والتلال الوعرة المتوجة بأطلال القرى القديمة، وهي قرية بيوتها مبنية من الحجارة، وتتكون من دور واحد، وتقع في بلاد بني عُمَر[٧]، وتتبع مدينة الظَّفِير (حاليًّا مدينة الباحة) من الناحية الإدارية[٨]. ويُعْقَد فيها سوق الخَمِيس المهم[٩]، حيث تُباع

[٦] ويعرفان باسم شَدَا الأعلى، وشَدَا الأسفل، فالأول يقع إلى الجنوب من مدينة قِلْوَة المعروفة في تهامة الباحة، بحوالي خمسة عشر كيلو مترًا، وأغلب سكانه من فخوذ قبيلة زهران، ويقع الثاني إلى الجنوب من شَدَا الأعلى، وغربيّ مدينة المُخْوَاه المذكورة، بحوالي عشرة كيلو مترًا، ويسكنه بعض فخوذ قبيلة غامد المشهورة؛ انظر: السلوك ، *بلاد غامد وزهران*، ١٤١ – ١٤٣.

[٧] في الأصل «بنو عمرو».

[٨] كانت الظفير العاصمة الإدارية لبلاد غامد وزهران في المدة من سنة ١٣٥٣–١٣٧١هـ ، ثم انتقلت منها إلى مدينة بَلْجُرَشي، ومنها إلى مدينة الباحة في أواخر سنة ١٣٨٣هـ، ولا تزال الباحة إلى اليوم المقر الإداري لبلاد غامد وزهران؛ انظر: السلوك، *بلاد غامد وزهران*، ١٦١.

[٩] وفيما يلي الأسواق المجاورة للمخواة:

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

فيه الأبقار، والأغنام، والماعز، والحمير، وقليل من الجمال، وتُباع فيه أيضاً الحبوب، والبُنّ، والملح، والملابس، والأواني الفخارية، والحُصُر، والسِّلَال، والحِبَال، والأَرْحِيَة، والخضروات والعسل والنباتات ذات الروائح الذكية، وتهبط إلى هذا السوق جموع غفيرة من قبائل غامد وزهران الذين يلبسون جَنَابِي [١٠] في أوساطهم، ويرتدون ثياباً فضفاضة شُغِلَت بأشكال مميّزة من الخيوط الحمراء طبقاً للعرف السائد في جميع أنحاء الحجاز، وكثير من أفراد هذه القبائل حاسرو الرؤوس، تُوِّجَت خصلات شعرهم بعصائب من النباتات الذكية الرائحة، بينما يلبس الآخرون صَمَائِد وعُقُلاً قُصِّبَت بخيوط الذهب والفضة.

وحين مغادرتنا قرية المُخْوَاة، سرنا عبر تلال جبليّة ذات حوائط عمودية شديدة الانحدار، يبلغ ارتفاعها فوقنا ٣٠٠٠ قدم. هذه المنطقة تخصّ فخذًا من قبيلة غامد القويّة التي يسكن معظمها في الجبال إلى الشرق من هذا الموقع[١١] وتتناثر مزارعهم على طول وادي بَطَاط[١٢]، حيث اكتظت ضفتاه بالزراعة التي تُروى من الآبار والسيول معًا، ثم اجتزنا وادي قَنُونَا إلى الوراء من بَطَاط، ودخلنا بلاد بلْعُرْيَان[١٣]. منطقة جرانيتية خصبة، يقوم على حراستها العديد من أبراج المراقبة. ووصلنا في اليوم التالي إلى مركز إمارة ثُرَيْبَان الصغيرة حيث، احتفى بنا أميرها وأكرمنا[١٤]، ثم سافرنا من هناك في برد الصباح، وسط حشد من القرويين المتجّهين على الحمير، والجمال المحمّلة إلى سوق الثلاثاء (ثلاثاء عمارة) الواقع على ضفتي وادي يَبَة، في وسط بيئة من التلال المكونة من الصخور الجرانيتية، حيث يكتظّ هذا الوادي بأشجار النخيل. ورأينا هناك ثمّة محاصيل

القنفدة، وسوقها الخميس. وادي الأحسبة، وسوقه الجمعة اليمانية (تعرف باسم جمعة زُبَيْد). قَرْمَا، وسوقها الأحد. وادي يَبْس، وسوقه الاثنين (غامد). سوق الثلاثاء لبني عِيْسىَ. وادي دَوْقَة، وسوقه الأحد. بنو سُهَيْم وسوقهم الاثنين. بنو بُحَيْر، وسوقهم الربوع، بنو المُنْتَشِر، وسوقهم الخميس. العَوَامِر، وسوقهم الأحد، شُمْرَان، وسوقهم السبت، بنو رِزْق، وسوقهم الأحد، عُمَارَة، وسوقهم الثلاثاء. آل سليمان، وسوقهم الأربعاء (في نِخَال)، الجَوْف، وسوقها الثلاثاء.

[١٠] واحدتها جِنْبِيَّة، وهي خنْجَر طويل تُشَدّ بحزام على الوسط، وهي السلاح المفضّل في المنطقة الجبلية الذي يحمل من أجل الزينة والدفاع عن النفس، على عكس تهامة التي يفضل أهلها حمل السيوف، والسكاكين، والخناجر لهذا الغرض. ويختلف شكل الجِنْبِيَّة من منطقة إلى أخرى، فهي في بلاد غامد وزهران والعِرْضِيَّة قصيرة ومفضّضة، في حين أنها في منطقة مَحَايل وماجاورها، طويلة، وغمدها من الخَشَب المغطّى بالجلد الذي ينتهي بذيل من السيور الجلديّة.

[١١] يُعرف هذا الفَخْذ باسم غامد الزِّنَاد، وتنتشر ديارهم في بَطَاط، والفَرَعَة، ونُصَبَة والعطوة ، ويَبْس، حيث تنتهي ديارهم من الغرب بالقرب من بلاد زُبِيْد؛ انظر: الجاسر، حمد، *في سراة غامد وزهران*، الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩١هـ، ٢٦٠؛ السلوك، *بلاد غامد وزهران*، ١٤.

[١٢] وادي بَطَاط، يُطلق على أعلي وادي الأحسبة المذكور، وبه مقر الشيخ الزَّنْدِي، شيخ قبائل غامد الزناد؛ انظر: الجاسر، حمد، *في سراة غامد وزهران*، ٢٦٠؛ السلوك، *بلاد غامد وزهران*، ٥٧.

[١٣] إحدى قبائل العِرْضِيّة التابعة لمنطقة القنفدة؛ انظر: البركاتي، *الرحلة اليمانية*، القاهرة، ١٩١٢م، ١٠٣؛ الواسعي، عبد الواسع بن يحيى، *تاريخ اليمن*، ط.٣، اليمن: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ، ١١٤.

[١٤] ثُرَيْبَان، المقر الرئيس لقبيلة بَلْقَرْن التهامية، وهو يتبع أمارة القنفدة، ويقع في أعلى وادي يَبَة، وقبيلة بلقرن، إحدى قبائل العِرْضِيَّة الرئيسة؛ انظر عن هذه القبيلة: كحالة، عمر رضا، معجم *قبائل العرب*، ج.١، بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٨٨هـ، ١٠٣. حاليًا العِرضية محافظة تتبع إمارة مكة المكرمة.

ممتازة من الذرة، والسمسم، تُسقى من جدول يتدفق في الوادي، حيث يقوم سوق عُمَارة (الذي يعقد كل يوم ثلاثاء)[١٥] . وعُمَارَة قبيلة جذّابة، تُشبه أعراب تهامة، يلبس أفرادها مآزر قصيرة من القماش، ويشد الواحد منهم جِنْبِيَّة على وسطه من الأمام، أما شعورهم الطويلة، فقد زُيِّنَت بنباتات ذكية الرائحة اُشْتُرِيَت من السوق لهذا الغرض، ويلبس معظم النساء، وقليل من الرجال قُبَّعَات مصنوعة من الحصير، حيث تتميز قبعات الرجال بأن حوافها واسعة ومرتخية، أما قبعات النساء فهي قصيرة الحواف، ومتصلبة، وتيجانها مرتفعة [١٦].

وعندما اجتزنا الجدول، كان ثمّة راع شاب يشبه رمز الغابات أو الجمال عند الرومان، وقد ملأ بساتين النخيل بترديده لأنغام موسيقية شجيّة تنبعث من مزماره أو زُمَّارَتِهِ[١٧]، ثم دخلنا أرضاً مجدبة تتكون من الصخور النارية، والتلال الناتئة حيث توجد شجيرات متفرقة من السَّمُر، ولو أنها عديمة الأوراق المزهرة. وتستمر هذه المنطقة المهجورة حتى وصلنا إلى وادي خَاط[١٨]، ثم أراضي قبيلة حُمَيْضَة الزراعية في بارق[١٩]. وهي تُشبه قبيلة عمارة، ويسكن أفرادها في بيوت مستوية الأسقف، بُنيت من الحجارة بشكل جيد، وهذه القبائل المستقرة تملك قليلاً من الجِمال، وبعض الأبقار، وأحجاماً جيدة من قطعان الضأن والماعز[٢٠]، ولكنهم أساساً مزارعون يقومون بزراعة الدخن والذرة سواء في سهول صغيرة تُسقى عن طريق السيول، أو في بقع طينية في بطون الأودية. وإلى الوراء من آل حُمَيْضَة، توجد قبيلة آل جَبَلِي، وهم يسكنون على ضفتي وادي آل جَبَلِي،

---

[١٥] بلاد عُمَارَة، وتُعرف باسم العِرْضِيَّةَ الجنوبية، وهي كانت تتبع إمارة القنفدة أيضًا، وتقع بين ثريبان من الشمال، وبلاد بني شهر من الجنوب. وقبيلة عمارة، إحدى فخوذ قبائل بَلْقَرن؛ انظر: البركاتي، *الرحلة اليمانية*، ١٠٢. كحالة، *معجم قبائل العرب*، جـ ١، ١٠٣، و جـ ٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م ، ٨٢٢. حاليًّا ضمن محافظة العِرْضِيَّةَ.

[١٦] تُسمى الواحدة من هذه القُبَّعَات مَظَلَّة أو طَفَشَة، وهي تُصنع من ورق أشجار الدوم (الطُّفِيْ) أو من خَوْص النخيل، وتُزَيَّن مظلات النساء بالوَدَع، وبسيور ملونة من القماش أو الجلد.

[١٧] المزمار: يُعرف محليًّا باسم الصُّفْرَيْقَة، وهي تُصنع من لحاء عروق شجر السَّمُر، أو شجر العَاشْ، أو من مواسير حديديّة خاصة.

[١٨] في الأصل حاط.

[١٩] أسواق بارق هي كما يلي: آل حُمَيْضَة، وسوقهم الربوع (الأربعاء) (في العَجَمَة). آل موسى، وسوقهم الأحد (في القُرَيْحَاء) (في الأصل قريحات). (بنو شهر) وسوقهم الجُمْعَة (في أُثْرُب) (في الأصل أثرق). آل سباعي، وسوقهم السبت (في سَاحِل) (في الأصل ساحار). بللسمر، وسوقهم الثلاثاء (في المنظر)، ويقصد بهم بَلّلسْمَر الساكنين في تهامة عسير وما جاورها من الأصدار.

(المترجم) يطلق اسم بارق على منطقة تمتد من وادي خاط شمالاً إلى وادي بَقْرَة جنوباً، ومن جبل أثرب شرقاً إلى حَقْو جبل مرسى غرباً. ويُطلق اسم بارق أيضاً على مجموعة من القبائل التي تسكن المنطقة التي يشملها هذا الاسم، ومنهم حُمَيْضَة المشار إليها في النص؛ انظر: النعمي، هاشم بن سعيد، *عسير في الماضي والحاضر*، جدة: مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر،١٤١٩هـ، ١٢، ٥١.

[٢٠] الضأن، لونها أبيض، وذيولها مكتنزة بالشحم، وأحياناً رؤوسها سوداء، والماعز تتراوح ألوانها بين البني، والأبيض والأسود، أو متعددة الألوان. ويوجد في العِرْضِيَّةَ نسل محسن من الماعز، عادة ألوانها بنية، ولها علامات في رؤوسها تشبه القرون. وفي الحجاز، لون الضأن أبيض، ولون الماعز هو الأسود (في الغالب).

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

أحد روافد وادي حَلِي المهمة[٢١]. وقد استطعنا أن نطوي هذا الوادي حتى نصل إلى وادي حلي الذي كنت تواقاً لتتبع مجراه حتى الشاطىء، لكي أزور أعراب تهامة الممتعين حَقًّا.

نحن الآن خارج المنطقة الزراعية، وبالتحديد في أرض البدو، وهذا الاصطلاح يستخدم هنا للدلالة على القبائل التي تعتمد أساساً على الرعي، وتسكن في المنطقة الوعرة الواقعة بين المرتفعات الجبلية، والسهل الساحلي، إنهم، وقبل كل شيء، رعاة قطعان الماعز، ولكنهم يملكون بعض الضأن، والبقر وقليلاً من الجمال، ويقومون بزراعة بقع صغيرة على طول ضفتي الوادي، ويسكن هؤلاء البدو في بيوت صغيرة من الحُصُر، تعرف باسم الخُدُور(جمع: خِدر). ولا يستطيع المرء أن يرى في غرب جبال الحجاز، الخيام السوداء "بيوت الشعر" المعروفة في وسط الجزيرة العربية، وأثاثهم الوحيد قليل من الأسرة المُحَبَّلة أو الموضونة بحِبَال من الحَصِير أوالطُّفِيْ، وهؤلاء البدو هم رَبِيعَة الطَّحَاحِين، ومُوسَيفِرَة، وبنو هلال، ومَنْجَحَة، وإلى الجنوب منهم فخوذ من بدو بني نُمَار، وشهران، وقحطان، وخولان، والرَّيْث[٢٢].

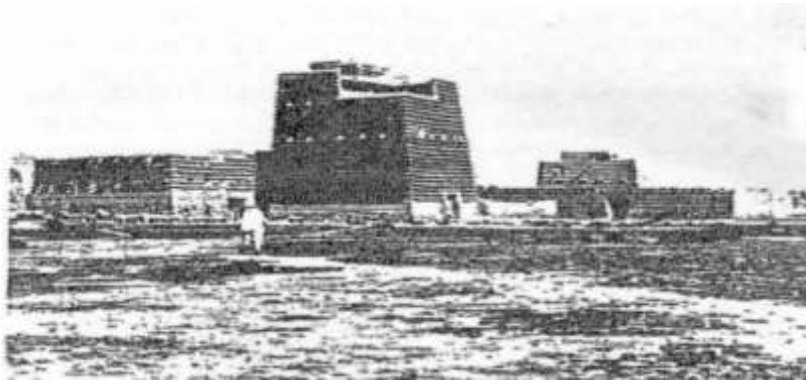

(لوحة ٣) برج ومنازل مبنية من الطين، ومغطاة بخطوط من الأحجار البارزة في بلاد قحطان

وقد كانت لهؤلاء، في الماضي القريب جداً، سُمعة سيئة كقطّاع طرق، وأهل عُنْف، ولكن تَبَدّل هذا السلوك في الوقت الحاضر لهيبتهم من ابن سعود[٢٣]. ويلبس هؤلاء مآزر قصيرة من القماش مصبوغة باللون، الأخضر، والأزرق، أو البُنِّيّ المشوب بحمرة. ويلبس النساء قُبَّعَات من القش قصيرة الحواف، عالية التيجان.

---

[٢١] آل جَبَلِي، أحد فخوذ قبائل بارق المذكورة آنفا؛ انظر النعمي، *عسير في الماضي والحاضر*، ٥١. وحلي واد كبير، ترفده كثير من الأودية الصغيرة، وهو ينبع من جبال السراة، ويصب في البحر الأحمر في المنطقة المعروفة باسم ساحل حلي؛ انظر: البلادي، عاتق بن غيث ، *بين مكة واليمن*، مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ، ١٧٦ – ٢١١؛ الزيلعي، أحمد، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي"، *حوليات كلية الآداب*، الرسالة التاسعة والثلاثون، ع.٧، جامعة الكويت، ١٤٠٦هـ، ١١، والصفحات التي بعدها.

[٢٢] عن بعض هذه القبائل؛ انظر: العقيلي، محمد بن أحمد عيسى ، *المخلاف السليماني*، جـ.١، الرياض، ١٣٧٨هـ، ٧٩؛ النعمي، *عسير في الماضي والحاضر*، ٤١ –٤٢، ٥٢، ٥٣؛ البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢٢٢–٢٣٠، ٢٨٨، ٢٩٦–٧.

[٢٣] هو الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله، مؤسس المملكة العربية السعودية، وقد اشتهر بهذه الكنية بين الكتاب العرب المعاصرين له، وهكذا يُعرف بين الكتاب الغربيين حتى الآن.
أنظر: حمزة، فؤاد، *في بلاد عسير*، القاهرة ١٩٥١م، ١٠ – ١١.

ثم وصلنا إلى حَلِيْ على امتداد يُعرف باسم حَلَوِيَّة، حيث يوجد، عبر منطقة صخرية مكشوفة، جدول صغير يتدفق في الوادي، ويحفّ به نبات الحَلْفَا، وأحراش السَّلَم، والسَّمُر، وغيرها من الأشجار البرية، ومنها شجر الأَرَاك، والمَرْخ، والمَضَّ ذو الزَّهْر الأحمر، وشجرة العَدَن بزهورها المحببة إلى النفس، وجذوعها العارية القبيحة، ولبنها الذي تدره من أغصانها ليتحول إلى صمغ، ثم نبات الصَّبَّار الذي ينمو في التلال المكونة من الصخور النارية. ورأيت على طول مجرى الغَيْل الذي يعج ماؤه بصغار السمك، كثيراً من طيور البَجَع، وطائر أبي مَلْعَقَة، وطائر أبي مِنْجَل اللمَّاع، ولوحظ أيضًا طائر اللقلاق (أبو مِشْط أو أبو مِطْرَقَة)، وطائر البَلْشُون الأبيض، ومالك الحزين، وفي بعض الأحيان طائر الخُطَّاف، والدجاج السوداني أو الغِرْغِر، وطائر الدُّرَّاج الذي يشبه الحَجَل، وطائر البُوْقِير، وطائر الشَّرَقْرَق الحَبَشِي، وآكل النحل ذو اللون الأخضر، وطائر التُّمَّر ذو البريق المعدني، وطائر الصُّرَد أو الدَّغْنَاس، وطائر البَابْلَر أو الأصفر العينين، وطائر البلبل، وطائر الوَقْوَاق، وأحياناً طائر النِّسْر. وينساب وادي حلي عبر ممرّ حصن الطَّرَفيْن الضيّق إلى سهل ساحلي رملي، حيث توجد أول قرية في هذه المنطقة هي قرية السَّبَطَة التي تسكنها قبيلة العُمُور[٢٤]، وفيها سوق الأربعاء، أحد أسواق وادي حلي[٢٥].

تحتوي تهامة على سهل ساحلي رملي يتراوح عرضه ما بين ١٢ – ٢٠ ميلاً[٢٦]، وهي تنقسم إلى تهامة الشام، وتمتد من البِرْك إلى اللَّيْث شمالاً ، ثم تهامة عسير(الممتدة إلى الجنوب من تهامة الشام)، وتهامة اليمن. وتُعرف المنطقة الجبلية التي تتوسط بين تهامة الشام، وسفوح جبال السراة، ويتراوح ارتفاعها ما بين ٥٠٠– ٤٥٠٠ قدم، باسم "العِرْضِيَّة"، بينما يُطلق على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أبها اسم «الحِبَاطَة». ويُطلق على جميع هذه السلسلة الجبلية بما في ذلك عسير التي يزيد ارتفاعها عن ٩٠٠٠ قدم اسم «الحجاز»، ويُستخدم هنا بشكل شامل اصطلاح الشام الذي يُطلق على الشمال، واليمن على الجنوب، والجَبَلي على الشرق، والبَحْرِي على الغرب. ويُعرف سكان تهامة باسم التهاميين، ويتمركزن في الأودية التي تستمد سيولها من الجبال، وهم بصفة عامة مستقرّون، ولا يوزّع الرجل منهم أرضه خارج عشيرته، ولا يبيعها

MANSFIELD, P., *The Arabs*, 1st (ed.), London, 1976, 400 - 401.

[٢٤] يُعرفون باسم عمورالسبطة نسبة إلى اسم قريتهم التي تعدّ أول قرى حلي في سهل تهامة؛ انظر: البلادي، *بين مكة واليمن*، ١٩٢.

CORNWALLIS, K., *Asir before World War I,* University of Michigan: Oleander, 1976, 35.

[٢٥] أسواق حلي هي: كِيَاد، وسوقه الأحد. مخشوش، وسوقه الاثنين .السَّبَطَة، وسوقها الأربعاء. الرَّدْحَة (في الأصل ربحة) وسوقها الخميس. (المترجم) انتقل هذا السوق إلى قرية الصُّفَّة، المركز الإداري لشرق حلي في الوقت الحاضر.

أسواق وادي يَبَة هي: قبيلة بلْعَيْر، وسوقهم الثلاثاء، بنويَعْلَى ، وسوقهم الأربعاء. وربيعة وسوقهم الجمعة. الشَّوارِدَة، وسوقهم السبت. (المترجم) انتقل هذا السوق إلى قرية الحَبِيْل ، إحدى قرى وادي يَبَه الرئيسية ، واستحدث سوق آخر هو سوق الخميس في قرية القَوْز المعروفة في المراجع باسم قَوْز بَلْعَيْر، وهو الآن من أهم أسواق وادي يَبَة بل من أهم أسواق ساحل منطقة القنفذة.

[٢٦] يذكر عبد الله الغُنيم أن عرض سهل تهامة يتراوح ما بين ٢٠ و ٧٠ كيلو متراً؛ انظر: البكري، أبي عبيد، *جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك*، ط.١، الكويت: جامعة الكويت مجلس النشر العلمي، ١٣٩٧هـ، ١١٠.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

إذا كان له أبناء كبار دون أخذ موافقتهم، ويرث الأبناء حصصًا متساوية، والبنات نصف حصّة الرجل. والأودية الرئيسة الواقعة في الشمال (تهامة الشام) هي اللَّيْث، ودَوْقَة [٢٧]، والأَحْسَبَة، وقَنُوْنَا، ويَبَة، وحَلِي[٢٨]. وفي كل الأحوال فإن وادي حلي، بروافده الواسعة الممتدة من شَرِي في الشمال إلى تَيَّة في الجنوب، يُعَدّ من أعظمها أهمية، ولا يتفوق عليه إلا وادي بَيْش الذي يُعَدّ مع وادي عُتْوَد، وضَمَد الصغيرين، من الأودية الرئيسية في تهامة عسير[٢٩]، ويُنتسب التهاميون بصورة عامة إلى أسماء أوديتهم، وهكذا، فإن سكان حلي يسمّون "الحَلَاوُنَة"، وأهل يَبَة "اليَبَابِنَة".

ويستوطن هذه الأودية كثير من القبائل المختلفة؛ ففي وادي حلي أربع قبائل كبرى هم: العَلَاوُنَة، والصُّحَب، وكنَانَة، والعُمُور[٣٠]. ومن القبائل في وادي يَبَة ، بنو يَعْلَى، والنَّوَاشِرَة، وبَلْعَيْر، والشَّوَارِدَة[٣١]، وتسكن في الأحسبة قبيلة الأشراف العَبَادِلَة [٣٢].ولا يجمع هذه القبائل أصل مشترك، ولكنهم عند إعلان الحرب يَتّحِدُون تحت راية واحدة، ويوجد من بين هؤلاء السكان فئة كبيرة من العَبِيد، وبصورة خاصة في تهامة عسير، ولكن كثيراً منهم الآن أحرار، ويملكون أرضًا، وحينما لا يَسِيلُ أحد الأودية فإن سكانه يهاجرون إلى أي مكان آخر في تهامة، حيث يُسْتَقْبَلُون بالترحاب، ويساعدون في الحصاد، ثم يعودون بعد ذلك إلى أوطانهم، ومعهم أحمال من الحبوب، وعلى العكس حينما يصيب الخير ديارهم في بعض السنوات الأخرى، فإنهم يستقبلون مضيفيهم السابقين، وهذا النظام يشمل الإقليم الممتد من جيزان إلى الليث، وقد صَادَفْتُ أسرًا من أهالي المنطقة المحيطة بمدينة صَبْيَا (منطقة جازان) في طريقهم إلى القنفدة. وتعاني الأودية الصغرى كثيرًا من سنوات الجفاف العديدة، إلا أن وادي حلي ووادي بَيْش يستطيعان الاعتماد على السيول سنوياً؛ ففي السنة

---

[٢٧] في الأصل، دونقة. يوجد بين دوقة والليث في تهامة الشام واديان مشهوران تجاهلهما المؤلف هما: الشَّاقَّة الشامية أو وادي حَلْيَة، والشّاقّة اليمانية أو وادي عُلْيَب؛ وعنهما انظر للمترجم: الزيلعي، أحمد، *نقوش إسلامية من حمدانة بوادي عُلْيَب*، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٥هـ، ١٣–٢٠؛ البلادي، *بين مكة واليمن*، ٥٦–٦٥.

[٢٨] عن هذه الأودية؛ انظر: البركاتي، *الرحلة اليمانية*، ٥٨؛ البلادي، *بين مكة واليمن*، ٣٠ –١٩٥.

AL-ZAYLAʿĪ, «The Southern, Area of the Amirate of Makkah», 91.

[٢٩] عن هذه الأودية؛ انظر: العقيلي، *المخلاف السليماني*، جـ ١، ٣٦–٤٠.

CARNWALLIS, *Asir before World War I*, 36–37.

[٣٠] عن هذه القبائل؛ انظر: حمزة، فؤاد، *قلب جزيرة العرب* ، ط.٢، الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٥٣– ١٥٤.

[٣١] في الأصل الشَّارِدي، وهي نسبة الشخص الواحد إلى هذه القبيلة. وربما يقصد المؤلف بِبَلْعَيْر سكان القوز، ولكن لفظ بَلْعَيْر، أو قَيْف بلْعَيْر يشمل سكان القَوْز والمَقَاعِدَة، سكان الحبيل، والنواشرة والشواردة؛ انظر: كحالة، معجم *قبائل العرب*، جـ.١، ١٠٣؛ البركاتي، *الرحلة اليمانية*، ١٠٢.

[٣٢] تسكن قبيلتا زُبَيْد والسعدة في وادي لُوْمَة. وسكان دَوْقَة هم: الخِيَرَة، والمشاييخ، والأشراف الحَرَازِيَة، (والأشراف الشَّنَابِرَة)، ويسكن وادي قنونا قبائل بني زيد، وبدو الرواشد يسكنون في وادي نَاوَان، وزُبَيْد تسكن في وادي قَرْمَا، وبنو هِلَال يسكنون في وادي عَمِق. المترجم: يسكن في الأحسبة فئات أخرى من حرب زبيد، والسِّفْرَان، والأشراف العبادلة، وفي شرقيِّها يسكن آل سعد من زهران.

الماضية انفجر العَقْم الرئيس في وادي حلي[٣٣]، وتبعاً لذلك، أصبح الوادي الذي في أعلى البَيِّضَيْن مهجوراً [٣٤]، فقد انتقل ساكنوه إلى وادي يَبَة. وتأتي السيول في أي شهر خلال السنة، ولكن فصلي الخريف والشتاء أكثرها اعتيادًا، حيث تُحجز وتوزّع (السيول) على مساحات كبيرة بواسطة عدد من السدود الترابية تُعرف باسم "زُبَيْر والجمع: زُبُر"، وهي تحتاج إلى انتباه منتظم؛ لأن السيول التي لا تُسْتَطاع السيطرة عليها، ربما يلحق فيضانها أذى بالمحاصيل اليافعة.

والمحصولان الرئيسان في تهامة هما: الذُّرَة التي تنمو في الأراضي الطينية الرسوبية، وتنتج من بذرة واحدة من ثلاث إلى خمس حَصْدَات[٣٥]. والدُّخْن الذي يبذر بصورة عامة على المطر، وينمو في الخَبْت، أو الأراضي الرمليّة بين الأودية. وتُحْصَد الذرة بعد ثلاثة أشهر من بداية زراعتها، ثم بعد ذلك كل شهرين، بينما يُصْرَم الدخن مرة واحدة بعد ثلاثة أشهر من تاريخ غرسه.

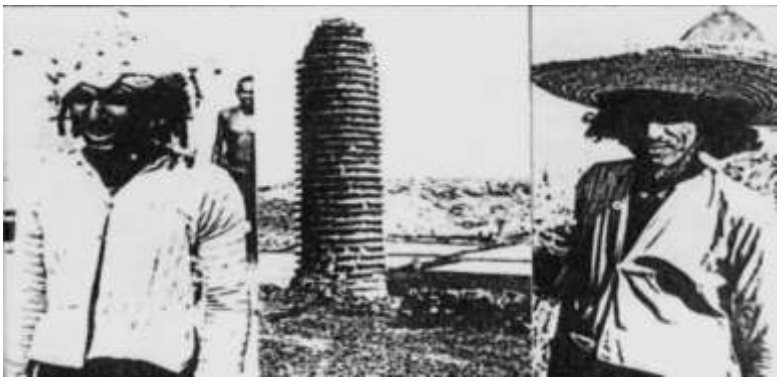

(لوحة ٤) رجلان من تهامة عسير أحدهما يلبس مظلة من الحصير، والآخر يلبس خوذة مصنوعة من ورق النخل

ويُعَدّ قصب الذرة، وليس الدخن، عَلَفاً جيداً حتى ولو كان يابساً، والمحاصيل التي يكتمل نموها في شهري يوليه وأغسطس تُستخدم فقط لهذا الغرض؛ لأن الرياح الحارة التي تهبّ في ذلك الفصل تساعد على تجفيف الحبوب، ويُزرع السمسم في أطراف الأراضي السَّيْلِيَّة، حيث تُزرع أيضاً مقادير صغيرة من القطن والفاصوليا، وليس لدى أهل تهامة دورة زراعيّة للمحصولات، فهم يبذرون كلما وجد السيل. وتوجد حول بعض الآبار بساتين صغيرة تُستنبت فيها الطماطم، والباذنجان، والبامية، والدباء، والحبحب، والخربز، والنباتات ذات الروائح الذكية[٣٦]. ولا ينمو هنا البصل، والثوم، والفلفل الأحمر، فهذه المحاصيل مع محاصيل أخرى هي

---

[٣٣] يُعرف العَقْم الرئيسي في وادي حلي باسم جُعَيْرَة، ويليه في الأهمية الرَّصَّاص، ويقصد بالعقم السد الترابي الذي يحجز مياه السيول لغرض ري الأراضي الزراعية. وعن العَقْم (العُقُوم) ونظام الري في هذه المنطقة؛ انظر:
ABDULFATTAH, K., *Mountain Farmer and Fellah in Asir*, Erlangen, 1981.

[٣٤] قرية المشابيخ ، وهي تقع في ساحل حل؛ انظر: الزيلعي، "المواقع المندثرة في وادي حل"»، ٣٨.

[٣٥] خلال رحلتي عبر تهامة في عام ١٩٤٧م، تأكدت من هذا، بصورة لا تقبل الشك، عندما اطلعت في شهر يونيه على المحصول الخامس في وادي حلي؛ (المترجم) يُطلق الأهالي على هذه الحصدات على التوالي اسم: (١) الشَّب، (٢) الخَلْف، (٣) خَلْف الخَلْف، (٤) خلف الجِنِّيَّة؛ انظر:
ABDULFATTAH, *Mountain Farmer and Fellah in Asir*, 43.

[٣٦] مثل الريحان، والشَّيْح، والشَّار، والكَاذِى.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

الليمون، والعنب، والمشمش، والخوخ، والرمان، والموز والبطاطس، والبِرْك، والشَّار، تُجْلَب إلى أسواق تهامة من جبال الحجاز، والتَّمْر قليل، وينمو معظمه في أعلى وادي يَبَة، وعلى طول الساحل بين عَمِقْ، والقَحْمَة. وجملة التمور المستهلكة هنا تصل عن طريق البحر، أو من واحة وادي بِيْشَة، أما شجر الدوم الذي تُصَدَّر أوراقه، وأيضاً تُباع في هذه الأسواق، ويُصنع منها الحُصُر، والزَّنَابِيل والسِّلَال والحِبَال فإنه ينمو فقط في أودية تهامة عسير[٣٧].

(لوحة ٥) وادي بَيْش عند دخوله من الحباطة إلى تهامة

ولا يمتلك التهاميون إلا قليلًا من الجِمال، ومعظمها تمتلكها القبائل الساكنة إلى الشمال من القنفدة، وهم يستخدمون البقر في حرث الأرض وإقامة العُقُم، أو السدود الترابية، وقد علمتُ أن رجلًا غنيًّا يمتلك من ثلاثين إلى أربعين رأسًا من البقر، لذا فمن الواضح، أنهم يمتلكون أكثر مما رأيت، كما توجد أحجام غير قليلة من قطعان الماعز، وبعض الضَّأن التي تُودع بصورة عامة عند جيرانهم البدو لحفظها، وتربية الدجاج شائعة حول القرى، والحمير دواب ركوبهم المفضّلة، وهم يسافرون عليها مسافات طويلة في وقت قصير يبعث على الدهشة، ويستخدمونها أيضاً في جلب الماء من الآبار في جرار كبيرة تعلّق في شباك من الحِبَال على جانبي الحمار، والحطب شحيح على الرغم من وجود بقع من شجر الأراك، والأثل في الأودية؛ كما يحافظون على أشجار السدر الكبيرة في الحقول لفاكهتهم[٣٨]. ويسكن هؤلاء الأعراب في عُشَشٍ مستديرة الشكل، جيدة، التركيب تُبنى في العادة على هيئة كتلة واحدة، على هيكل من الأغصان بدون عمود خشبي، وتُكَلَّس من الداخل بالطين، ومن الخارج تُغَطَّى بالحشيش الذي يُحْكَمُ رباطه بحبال رفيعة. وتتكون المنازل في القرى من مجموعات، بينما يُحاط بعضها بأفنية عالية مبنية من الأخشاب الرفيعة، ويحاط البعض الآخر بِزَرِيبَةٍ من

[٣٧] أوراق الدوم هذه تسمى محليًا الطُّفِيْ، ويستخدم في كثير من الأغراض المنزلية، وقد لَقِيَتْ زراعته وصناعته والاتجار به قدرًا كبيرًا من الرواج منذ زمن طويل؛ انظر: الزيلعي، *مكة وعلاقاتها الخارجية*، الرياض: جامعة الرياض عمادة شؤون المكتبات، ١٤٠١هـ، ١٨٩.

[٣٨] تسمى هذه الفاكهة ،النَّبْق، وهي تشبه ثمر التفاح الصغير البري؛ انظر:

RUTTER, E., *The Holy Cities of Arabia*, vol. I, London: The Westminster Press, 1928.

مَرَامِيد قصب الذرة، وقد جرت العادة أن تترجّل عن الجَمَل، وتمشي على رجليك حينما تمرّ عبر هذه القرى[٣٩].

آنية الطبخ، والماء، وفناجين القهوة، مصنوعة محليًّا، وبصورة عامة من الفخار الأحمر؛ وأقداح الشرب مصنوعة من الخَشَب[٤٠]. أما أطباق الطعام والسلال فهي من ورق الدوم (الطُّفِيْ)، وأواني الزبدة من لحاء الدُّبَّاء؛ وهذه تُعلَّق على جدران المنازل في معاليق جلدية [٤١]. وتستخدم الأسِرَّة المصنوعة من الخَشَب و الموضونة بالحبال، للنوم والجلوس معاً؛ لأن أرضية المنازل تغصّ بالكُرْش (القراد الصغير)، ولو أن حشرات البَقّ والبراغيث لا وجود لها في هذه القرى.

القهوة (المعدّة من البُنّ والمبهّرة) بالزنجبيل هي الشراب العام المفضّل[٤٢]. والفنجان يُملأ دائماً، ويُعطى الضيف فنجانين دفعة واحدة [٤٣]، والغذاء الرئيس هو خبز أو ثريد الذرة، وفي حالة عدم وجوده أو انعدامه فإن الدخن يؤكل عريكاً بسمن الزبدة النقيّ، ويؤكل السمك المجفّف والتمر بصورة عامة، ولكن اللحم وجبة ترفيهية، والحليب شحيح[٤٤].

ويلبس الرجال بصورة دائمة مآزِر من القماش مع خنجر أو جِنْبِيَّة مشدودة في الوسط من الأمام، ويحملون بشكل اعتيادي سيوفاً في أغمدة مفضضة، والأطفال يُكْسَوْن الثياب منذ سن مبكرة، ويلبس جميع الذكور حتى الأطفال أحزمة من الجِلْد تحيط بالخصر[٤٥]، وفي إحدى المرات كان أحد الأطفال يأكل معنا، وقد نسي أن يلبس حزامه الجلديّ بعد الاستحمام، وحالما لاحظ عدم وجوده على بطنه رفض أن ينهي وجبته، وهرع لأخذه، وتُلبس في الاحتفالات بصورة خاصة، صدَيْرِيَّة قصيرة، زاهية الألوان، ضيقة الأكمام، ويمتلك الأطفال والشباب شعوراً طويلة تفرق في الوسط، وتُمْرَخُ على طول المفرق بمعجون اللباب الأبيض

---

[٣٩] هذه العادة كانت شائعة؛ لأن راكب الجَمَل يكشف البيوت من الداخل، ومن هنا فإن عليه أن يمشي على رجليه كلما كان طريقه يشق المحلات السكنية، وإن لم يفعل فإن أهل المحلة يجبرونه على النزول عن ظهر جَمَلِهِ، والمشي على رجليه رضي أم لم يَرْضَ.

[٤٠] اشتهرت هذه المنطقة، ولاسيما حلي بن يعقوب، بصناعة الأقداح من الخَشَب منذ مدة طويلة؛ انظر: المقدسي، محمد بن أحمد البشاري، *أحسن التقاسيم*، ليدن: طبعة بريل، ١٩٠٦م، ٩٨؛ الزيلعي، *مكة وعلاقاتها الخارجية*، ١٨٩.

[٤١] هذه المعاليق تسمى سلال أو شباك (مفردها سلة أو شبكة) ، وهي تعمل في تهامة من المَشَق المصنوع من الطفي، أما في المناطق الجبلية فتعمل من السيور الجلدية.

[٤٢] القِشْر: شراب، أو نقيع يُعمل من قِشْر البُنّ، وهو أيضاً يُشرب في تهامة عسير بصورة عامة.

[٤٣] يذكر فيلبي هذه العادة في أثناء زيارته إلى حلي، ونزوله ضيفاً على شيخ كنانة إبراهيم الكناني، جَدّ شيخها الحالي، عبدالرحمن بن عيسى الكناني، ويضيف بأن الخادم صبّ له ثلاثة فناجين متتابعة قبل أن يقدّم شيئاً لبقية الحاضرين؛ انظر:
PHILPY, J., *Arabian Highlands*, New York, 1952, 687.

[٤٤] (والتهاميون بالمقاييس العربية ليسوا كرماء)، ولا يرى فيلبي أن هذا الوضع ناتج عن بُخْل، وإنما بسبب الفقر؛ انظر:
PHILPY, *Arablan Highlands*, 689.

[٤٥] هذا الحزام يسمى جَدِيلَة، وهو يُصنع محليًّا من سيور الجلد الرفيعة، ويُوضع على البطن منذ الصغر، وكان الاعتقاد السائد أن هذه الجديلة تقي حاملها من الفتق، ومن دوالي الخصية.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

المسحوق، ويُلَفّ الشعر بشريط جلدي رفيع، مزخرف في بعض الأحيان بالفضة[٤٦]، في حين تُلبس بصورة دائمة عصابة من نبات البِرْك، أو حزمة من النباتات الذكية الرائحة تُغْرَز في الشِّلَاف[٤٧]. إنهم شعب نحيل البنية، ومُلَوَّنُون، وشعورهم سوداء مموّجة، بجانب ما يظهر عليهم من صفات المَرَح، والسعادة، والانطلاق، كما أنهم يُعرفون بضحكهم، ووداعتهم، وعدم جديّتهم، وكذلك بتصرفاتهم العفوية، وقد لاحظت عددًا من حالات التراخوما، وقليلًا من قرحة المناطق الحارة، وحالة واحدة تقريبًا مؤكدة من حالات الزائدة الدودية، ويوجد هنا مرض الدودة الغِينِيَّة [٤٨]، وقد رأيت فيما بعد حالات متعددة حول صَبْيَا.

وَصلتُ إلى البَيِّضَين، قرية المشايخ، لأجد الأهالي وجيرانهم يحتفلون بالختان[٤٩]، وهذا الاحتفال ذو أهمية عظيمة بين هؤلاء القبائل، وهو مناسبة للرَقص الذي يستمر من أسبوعين إلى شهر، وتتم عملية الختان لفتيان بين سن السادسة عشرة والخامسة والعشرين[٥٠]. وقد خُتِنَ في هذه المناسبة أربعة أولاد فقط، رغم أن عدد المختونين يصل في بعض الأحيان من ٨ – ١٠ أشخاص، إنهم يرتدون ثيابًا مميزة تتكون من سروال ذي طرفين مشغولين بخيوط حمراء تحيطان بأسفل الساقين تحت تنورة كاملة البياض مشدودة بحزام على الوسط [٥١]، ومعاطف حمراء براقة (صُدَيْرِيَّة).

---

[٤٦] يُعرف هذا الشريط محلياً باسم الشِّلَاف أو الغُدَار ، ويُصنع من السيور الجلدية الرفيعة، ويُرَصَّع بحبيبات من الفضة.

[٤٧] حزمة النبات هذه تسمى طِلَالَة أو غُرْزَة، وهي تُغْرَزُ في عصابة مصنوعة من النبات، أو من الخيزران الرفيع المرصَّع بحبيبات الفضة، وتُعرف باسم المَشَقَة.

[٤٨] بعض هذه الصفات التي ذكرها المؤلف كانت مرتبطة بالجهل، أما بعد انتشار التعليم في الوقت الحاضر، فإن أهالي حلي أصبحوا في غاية التهذيب، أما مرض الدودة الغِينِيَّة فيعرف محليًا باسم العُرُوق، وهو يسبب آلامًا مبرحة، ويبدأ بتورم في الأطراف غالبًا، ثم ينتج عنه تقيّح لم يلبث أن ينكشف عن عرق أبيض يشبه الدودة، حيث يأخذ المريض في جَرّ هذا العرق رويدا رويدا حتى يتخلص منه الجسم. وبالتالي يشفي المريض، وتستغرق هذه العملية مدة طويلة، ويُنتج عن هذا المرض قصور، أو تشوه في الأعضاء أحياناً.

[٤٩] يُسمى هذا الاحتفال الهَود؛ انظر: العقيلي، محمد بن أحمد، *الأدب الشعبي في الجنوب*، الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٢هـ ، ٢٩.

[٥٠] عن عادة الختان في هذه المناطق؛ انظر: شاكر، محمود، *شبه جزيرة العرب (عسير)*، دمشق، ١٣٩٦هـ، ٨٥؛ رفيع، محمد عمر، *في ربوع عسير*، القاهرة، ١٣٧٣ هـ، ٨٤ – ٨٧؛ النعمي، *عسير في الماضي والحاضر*، ٥٨؛ حمزة، *في بلاد عسير*، ١٠٩ – ١١١.

[٥١] لا تُلبس الدَّكَّة، ولا السِّرْوَال، ولا الحِزَام الخاص بهما إلا من قبل الثَّلَّابَة خلال الاحتفالات التي تسبق الختان. (المترجم) تُعرف هذه التنورة، على الأقل في تُهَامَة، باسم الدَّكَّة، وهي من قماش الحرير بألوانه الأحمر والأخضر والأصفر أو الأبيض. وتتكوّن من قطعة طويلة تتراوح بين ٧ و١٠ أذرع تُخاط من الطرفين، وتزمّ من الأعلى بقدر الخَصْر بحيث تُلبس فوق السروال، وتُشَدّ بحزام الخَنْجَر، وعندما يستدير الثَّلَّاب في أثناء الرقص فإن الشكل الفضفاض للدكة يرتفع بفعل الهواء من الأسفل مُحدثًا شكلًا مثل المظلة التي يستخدمها جنود سلاح المظلات، وتُطلق كلمة الثَّلَّابَة على الفتية الذين ينوون الختان، ويمارسون هذا النوع من الرقص قبل إجراء عملية الختان، والمفرد ثَلَّاب، ويُطلق عليهم في بعض المناطق كلمة المُدَرَّمِين، مفرد، مُدَرَّم، وفي جازان يُطلق على الواحد منهم الدِّرْم؛ انظر: العقيلي، *الأدب الشعبي في الجنوب*، ٢٩.

يتجمع الجمهور كل عصرية، وفي المساء كذلك، والثَّلاَبَة يرقصون بينهم، والموسيقيون أو الطَّبَّالَة زنوج [أي سود البشرة] ، وأدواتهم الموسيقية هي : الزَّلَفَة، وهي طبل واسع يُضرب باليدين، واثنان من الأزْيَار [مفرد زِير] يدقان بواسطة المضاريب، وزمارتان تدعى الواحدة منهما صُفَرْيقَة[٥٢].

تُدَار بواسطة الزَّلَفَة حركات الركض (الرَّقْص) المعقّدة التي تخضع لطابع معيّن، ويرقص الثَّلاَّبَةُ جماعة وفرادى، وهم يجثمون، ويحنجلون (يهكعون ويقفزون) بينما يحملون في أيديهم خناجر مسلولة، يحركونها أمام أجسامهم، وقد انضمّ إليهم طفلان صغيران ليتعلما الرقص، وبقية الأطفال يتدربون خارج الحشد، بينما يوجد خلفهم الجَيْش أو الفرسان في صف واحد[٥٣]، وهم يهزّون أنفسهم على وقع الطبول، ويحملون في أيديهم سيوفهم المسلولة، والمشرعة إلى أعلى، وتراهم في ضوء القمر مُتَوَّجِين بالزهور، ونصف عارين.

وقبل إجراء عملية الختان بيومين، انطلق الأولاد راكبين جملين، وبصحبتهم أصدقاؤهم، وتتقدمهم راية، ليدوروا حول القرى المحيطة بهم، حيث يُحتفى بهم فيها، ويرقصون في كل منها[٥٤].

ويوم الختان يتجمع حشد كبير من المتفرجين، وبعد ظهر ذلك اليوم بوقت متأخر، يرقص الأولاد، ثم ينسحبون (بعد الرقص) إلى عِشَّة معدّة لتغيير ملابسهم، حيث يلبس الواحد منهم إزارًا من القماش الأبيض، ويصعدون على أكتاف العبيد ، ثم ينزل هؤلاء الثَّلاَبَة، ويمشون بثبات أمام الجماهير، ويقفون وأيديهم مشدودة إلى صدورهم، وعندئذ يتم تنفيذ عملية الختان بواسطة اثنين من العبيد[٥٥]. ثم يصعد الثَّلاَّبة مرة أخرى على ظهور العبيد الذين يأخذونهم إلى الفرقة الموسيقية (أي الذين يَدُقّون أو يضربون الأَزْلاَف جمع: زَلَفَة والأَزْيار جمع: زِيْر)، ويدورون بهم بين الجماهير، وهم يؤدّون بذراعيهم، وكتفيهم حركات راقصة، وقد أعرض أحد هؤلاء الثلابة عن الركوب على كتفي العبد، وقدّم عرضاً طويلاً ومدهشاً من الرقص، ولم يظهر على أحدهم أي شيء من علامات الألم، وبالرغم من أن هذه العملية قد خُفِّفَت في هذه الأيام بناءً على أوامر الملك عبد

---

[٥٢] عن هذه الأدوات الموسيقية؛ انظر: العقيلي، *الأدب الشعبي في الجنوب*، ٢٤.

[٥٣] تطلق كلمة الجَيْش على نوع الرقصة، والمُجَيِّشَة (مفرد: مُجَيَّش) على الرجال الذين يمارسونها، وتُعرف في جازان باسم العَزَاوِى، انظر العقيلي، *الأدب الشعبي في الجنوب*، ٢٧.

[٥٤] تسمى زيارة القرى المحيطة من قبل هؤلاء باسم دَعِيَّة أو دعوة، وفي جازان تعرف باسم المَطَالِيب؛ انظر: العقيلي، *الأدب الشعبي في الجنوب*، ٣٠.

[٥٥] يسمى هذان العبدان: الخَاتِن واللاَّزِم، فاللاَّزم هو الذي يشدّ قضيب الختين، والخاتن يرفع الغُرْلَة بيد، ويقطعها بالسكين من أعلى القضيب ومن أسفله في سرعة فائقة. وعن كيفية إجراء عملية الختان، ولباس المختونين؛ انظر: رفيع، *في ربوع عسير*، ٨٦- ٨٧.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

العزيز، وأُجْرِيَ عليها تعديل بمنع السَّلْخ الذي كان سائداً في الماضي القريب، إلا أنها تُجْرى بطريقة شاذّة ومؤلمة[٥٦].

غادرنا حلي من كِيَاد، وهي سوق كبيرة تُعْقَد يوم الأحد، وتُستخدم من قبل البدو المحيطين بها، وسرنا محاذين لقوس (حَافّة) وادي حلي عبر أراضي بني هلال[٥٧]. وهذه القبيلة الفتّاكة وهم ورثة الاسم المشهور في الأساطير، تسكن حاليًا في منطقة بركانيّة تمتد بين مَحَايِل، والبِرْك، والقَحْمَة[٥٨]. وتنسب الرواية المحلية بطولات أبي زيد الهلالي إلى منطقة وادي حَلِيْ، ويُذْكَر أنَّ قبر ابنة العزيز هناك، وكان قطع الطريق، والقتل المتعمد حتى وقت قريب، علامة مميّزة لبني هلال، ويعتبرون حتى اليوم (أي زمن المؤلفّ) مبعث خوف للمسافرين الذين يسلكون هذا الطريق، إنهم قليلو العدد، ويعيشون حياة بدويّة في هذه المنطقة البركانية[٥٩]. وقد حدث في الماضي كثير من الثورات، من جَبَل الشريف الذي تقع بالقرب منه نواة بركانية كانت في حالة نشطة جداً، وحقل الحَرّة الذي يبدو بوضوح أنه خَمَد منذ زمن طويل، وهي تمتد نزولاً من هنا حتى البحر فيما بين عَمِق والرَّقَبة، الواقعة إلى الجنوب من القَحْمَة، بما في ذلك حَبْحَبْ الشيخ المشهور بالقرب من البِرْك[٦٠] ثم اجتزنا وادي حلي مرة أخرى بالقرب من مَحَايِل، وهي قرية (حاليًّا محافظة) تتبع مدينة أبها إداريًّا (أي منطقة عسير)، وبها سوق السبت المهم، وتقع على ارتفاع ١٦٩٠ قدمًا فوق سطح البحر، وهي مثل جميع قرى العِرْضِيَّة منازلها مبنية من الأحجار، ومن طبقة واحدة، وتنمو على سطوحها المستوية في أوان خاصة، النباتات الذكية الرائحة.

---

[٥٦] ختان السَّلخ الذي كان يمارس في تهامة قبل أربعين سنة (من زيارة المؤلف إليها)، هو إزالة الجلدة تمامًا من (الأعلى إلى) الأسفل إلى داخل ما بين الفخذين، ولا يزال يمارسه بعض البدو، وقد خُفِّضَت في تهامة إلى سلخ القضيب بكامله، واستمر ذلك حتى عهد قريب، ولكن هذه الطريقة مُنِعَت الآن من قبل الملك عبد العزيز، ويمكن بمقتضي هذا المنع إزالة عرض بنانتين فقط تبدأ من الأسفل، وتُرفع الغُرْلَة ثم تقطع قطعتين؛ إحداهما إلى أعلى، والأخرى إلى أسفل، ويُعَالَج الجُرْح يوميًّا بورق السَّلَع، وفي سنة ١٩٤٥م حُكم على ثمانية أولاد من أهل وادي حلي بقطع يد كل منهم، لتجاوزهم الطريقة المتبعة، وإجرائها على الشكل الممنوع. (المترجم) صدر الأمر بالعفو عنهم قبل إجراء عملية القطع.

[٥٧] تقع كِيَاد على حافة وادي حلي الجنوبية، البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢١١؛ الزيلعي، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي"، ٣٣، ٣٥. أما قبيلة بني هلال فهي من القبائل المشهورة التي تنتشر حول مدينة البِرْك، وهي تتكون من أربعة أفخاذ؛ انظر: كحالة، *معجم قبائل العرب*، جـ٣، ١٢٢٠.

[٥٨] هذه المواقع من المراكز الرئيسة في المنطقة الجنوبية الغربية؛ انظر: البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢١٧، ٢٣٠، ٣١٠.

[٥٩] يُقصد بهذه المنطقة البركانية حرة كنانة، أو حرة بني هلال المعروفة في المصادر العربية؛ انظر: الهمداني، أبو محمد الحسن، *صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع*، الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩٤هـ، ١١٨، ٢٥٨؛ ياقوت، أبو عبد الله الحموي، *معجم البلدان*، جـ.٢، بيروت: دار صادر دار بيروت، ١٩٥٥م، ٢٥٠.

[٦٠] حقل المقذوفات البركانية (الحرة) يفصل تهامة الشام عن تهامة عسير، والبرك يتبع القنفدة من الناحية الإدارية، أما القحمة فهي تابعة لجيزان، وفي الماضي كانت تهامة عسير تحت حكم الإدريسي. المترجم: كل هذه المواقع تقع إلى الشمال من القحمة، وليس إلى الجنوب منها كما يذكر المؤلف، أما من حيث التبعية فإن كلًّا من البرك والقحمة تتبعان حاليًّا لمنطقة عسير في المملكة العربية السعودية.

هنا (في محايل) غيرنا جمالنا مرة أخرى؛ لأن الجمال لا يمكن أن تُسْتَكرى للسفر بعيداً عن القرى الخاصة بها، ثم سلكنا وادي تيَّة إلى عقبة شَعَار، الممرّ الذي يُصعد عن طريقه إلى جبال الحجاز، وتيَّة واد غني مزروع بشكل كثيف من قبل فخوذ قبائل بني ثُوْعَة المُسْتَقِرَّة[٦١]. وقد عملت السيول هنا على إحداث قطع بعمق ٤٠ قدماً نزولاً في الطين الرسوبي إلى قاع الحصباء في الأسفل، ولكن ثمّة سلسلة من القنوات تسقي جميع المستويات، حيث توجد محاصيل جيدة سُقيت بسيول حديثة، وقد جلبت الأمطار الشديدة التي نزلت على الجبال خلال العشرة أيام الماضية إلى الوادي طبقة كثيفة من الطَّمْي، وهذا الوادي لا تزيد نهايته من أعلى عن ٢٠٠ ياردة في العرض، وهو حجري للغاية، ومعزول بواسطة جبال من الصخور الجرداء الشديدة الانحدار، إنه منظر رائع، ويبعث على الرهبة، ومهجور إلى أبعد حدّ، والصخور التي حول عقبة شَعَار لها لمعان فضّي غريب، وفي أعلى العقبة[٦٢]، وهي سهلة نسبيًّا، توجد حلقة من القلاع التركية، ويوجد هنا أيضاً طريق تركي جيد يؤدي إلى أبها عبر بلاد بني مالك.

وقبائل عسير مجتمعة هي: بنو مُغِيث (مُغَيْد)، وبنو مالك[٦٣]، وعَلْكَم، وربيعة، ورُفَيْدَة، بالإضافة إلى القبائل الصغرى المكونة من عاصم، ورجال أَلْمَع الذين يسكنون في أسفل السُّوْدَة[٦٤]. وعلى طول الطريق الذي يمرّ في أودية صغيرة عبر التلال الجبلية، توجد القرى، وحقول القمح والشعير، وبساتين الفاكهة. والمنازل هنا مميّزة، وهي مبنية من الطين، ولها مداميك متعدّدة على هيئة شرفات بارزة من الحجر أو القَرْمِيد، وُضعت في النصف الأعلى من الجدران لتقيها من التعرية، وتُحْرَس الحقول والنقاط المرتفعة بواسطة كثير من أبراج المراقبة، سواء المربّعة منها أم الدائريّة، وقد بُنيت من الصخور الكبيرة المشذّبة، وزُخرفت بأربعة أشرطة خارجية من المرو الأبيض، بينما الأخرى مستديرة الشكل بصفة دائمة، ومبنية من الطين، سواء بشرفات بارزة من القرميد، أم بدون ذلك[٦٥].

---

[٦١] في الأصل، ثوار، وعقبة شعار من العقاب المشهورة التي تقع بين محايل وأبها، وهي على بُعْد حوالي ٢٨ كيلو متراً إلى الشمال من أبها؛ انظر: حمزة، *في بلاد عسير*، ٩١.

[٦٢] العقاب، أو الممرات التي تؤدي إلى تهامة، وتقع إلى الشمال من أبها هي: عقبة سمعة (السودة)، وعقبة قضا (العصامي)، وعقبة شعار (وادي تية)، والجدعا (بيحان)، وجلجلة (بللسمر)، وعقبة ساقين (تنومة)، وعقبة سنان (النماص). عن هذه العقاب؛ انظر: حمزة، *في بلاد عسير*، ٩١-٩٣.

[٦٣] توجد ثلاث قبائل يُطلق عليها اسم بني مالك، وجميعهم من أصول مختلفة، وهم: بنو مالك جنوب الطائف، وبنو مالك العسيريون، وبنو مالك على الحدود اليمنية في أعالي وادي ضَمَد ووادي دَافَا.

[٦٤] عن هذه القبائل العسيرية؛ انظر: النعمي، *عسير في الماضي والحاضر*، ٣٤-٥٣. وعن قبائل بنى مالك، انظر: حمزة، *في بلاد عسير*، ١٠٤؛ العقيلي، *المخلاف السليماني*، ٨٨-٩٨؛ كحالة، *معجم قبائل العرب*، جـ.٣، ١٠٢٦-١٠٣٢.

[٦٥] المنازل الحجرية في جميع أنحاء هذه الجبال تُبنى بأحجار مهذّبة تقريبًا، وتملأ الفُرَج بالمونة حتى تصبح تقريبًا مثل الحجر الأملس المنحوت، وترصّع جدران هذه المنازل في الغالب بنماذج من المرو، وبصورة عامة حول النوافذ، وأحيانًا تؤطّر النوافذ في البيوت المبنية من الطين بإطار من الدهان الأبيض أو البرتقالي.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

وأبها، مدينة صغيرة تقع على ارتفاع حوالي ٧٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وقد بُنيت حول قلعة، وبها عدد من الدكاكين، وهي مركز إداري مهم يتولى إمارتها (حينذاك) الأمير تركي السديري، أكبر أبناء عائلة مشهورة يتولى أفرادها أيضاً حكم جَيْزَان (جازان) والقُنْفُذَة ،وجَدَّة، والجَوْف، والظَّهْرَان على الخليج.

ويُعقد سوق أبها يوم الثلاثاء، وهو فريد في ألوانه، حيث يلبس النساء فيه فساتين زاهية الألوان، ويضعن على رؤوسهن شيلات بَرّاقَة. ويوجد من بين الأنواع الكثيرة من القبائل التي تهبط هذا السوق، رجال من قبائل تِهَامَة، ونجديون في عباءات مصنوعة من وبر الجمال، وبدو من الصحاري العظيمة إلى الشرق، ورجال من الجبال بثيابهم الفضفاضة المطرّزة بأشغال الإبرة، ورؤوسهم المتوجة بعصائب من النباتات العطريّة، وبينهم أيضاً زوّار من اليمن، وعبيد من أخوياء الأمير، وتُباع في هذا السوق، وفي زاوية مفصولة عن الأخرى، كل من الحبوب، والزبدة، والسمن، والحطب، والملح، والموز والجص أو البويات والبنّ والعسل والبهارات، والأواني الفخاريّة، والأدوات الحديديّة، والحُصُر، والسّلال، والحبال، والملابس، والجلود، والفاكهة، والأعشاب ذات الرائحة الذكية، والأعلاف، وقليل من الماشية، ويزرع في هذه الجبال البُرّ، والشعير في الشتاء؛ والذرة في الصيف، وقد وصلت أبها في الثاني من شهر مايو (عام ١٩٤٦م) عندما كانت كثير من الحقول خالية، في حين أن بعضًا من الذرة كانت تُبذر في الحال، وأن الشعير والبُرّ لم يُحصد كله بعد، وقد أُقيمت المنحدرات المزروعة في كل مكان على شكل مدرجات، وقليل من الحقول تُروى بواسطة الآبار. وفاكهة الحجاز هي: المشمش، والخوخ، والبرقوق، والكمثرى، والتفاح الأخضر الصغير، والعِنَب، والرمان، والتين، والبرشومي، واللوز.

ثم سافرنا من هنا إلى ظهران الجنوب التي وصلناها بعد أربعة أيام ونصف؛ مررنا خلالها ببلاد شَهْرَان، ثم قحطان إلى الوراء من تَمْنِيَة، وهما قبيلتان كبيرتان وقويتان[٦٦]، ومما يبعث على السرور حقًّا، هو أن من يسافر عبر هذه المناطق الباردة والمنعشة حيث توجد قرى متصلة، يحصل على متعة لا نهاية لها. فهناك منازل متباينة في أشكالها، وطرق بنائها التي أعدت للدفاع، وبُنيت بأحجام كبيرة من أدوار متعدّدة، ولكنها جميعاً على درجة من البهجة والجمال المتناغم، هنا (في هذه البلاد)غرف الضيوف هادئة، ورحبة، والجدران مزخرفة من الأسفل بأشرطة من الألوان الخضراء، والحمراء، والسوداء، حيث قضينا أمسيات طويلة، وسعيدة بين رجال القبائل الذين يتجمّعون حول مَحْمَصَة البُنّ، والذين لم تقتحمهم بعد تأثيرات الغرب النشاز.

[٦٦] فروع قبيلة قَحْطَان المستقرة هي: بنو بشر، ورفيدة، وشُريف، وسنحان، وعبيدة، ووادعة. ومن شهران: تمنية، والمسقي، والجهرا، وسيحان، ووادي ابن هشبل (في الأصل، هشبان) وناهس وتندحه ،وعتود وقارة (لعلها القارية)، وبنو ماجار (لعلها آل عاجر)، (المترجم) خلط المؤلف هنا بين أسماء القبائل، وأسماء الأماكن، يتضح ذلك من مقابلة الأسماء التي أوردها هنا مع الكشوف التي تضمنها كتاب عسير في الماضي والحاضر لمؤلفه هاشم بن سعيد النعمي، ولمزيد من المعلومات عن أسماء قبائل قحطان وشهران، وأسماء المواقع التي ينتمون إليها؛ انظر: كحالة، معجم *قبائل العرب*، ج.٣، ١٤-١٩،٤١-٤٦.

ثم اجتزنا عقبة قَوَارِي التي يبلغ ارتفاعها ٩٠٠٠ قدم، والتي تكتسي منحدراتها بأزهار القَابُور الذهبية اللون، ووصلنا في اليوم التالي إلى الظهران، بعد أن سافرنا في نصف اليوم الأخير عبر طبقة من الصخور النارية المهجورة التي تعلو طبقة أخرى من الصخور الجرانيتية. وتقع الظهران على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم، وهي تسترعي النظر، لضيق، وازدحام، وكثرة أدوار منازلها التي بُنيت على طول وادي عَرِين[٦٧]، حيث ينمو فيه قليل من شجر البن، وتشيع في هذه المدينة أمراض العَيْن بصورة غير عادية، ثم نزلنا من هنا إلى وادي قَاعَة عن طريق عقبة مفتاح الخَشَبَة[٦٨]، وهي عقبة صعبة، وقد تأكد لنا من قبل، أنها لا تصلح لسير الجمال.

كانت الجبال هنا مغطاة ببساط من الأزهار البَرِّيّة، وأشجار العَرْعَر المتناثرة التي تنمو على طول أعالي الجرف[٦٩]، حيث سلكنا هذا الوادي عبر منطقة من شجيرات المناطق الحارة التي تكثر فيها طيور الغَرْغَر أو الدجاج السوداني. وسرنا بمحاذاة سلسلة جبال مُشَيت (مُشَيْط) حتى وصلنا جَلَّة الموت[٧٠].

وهي بقعة مشئومة، يبلغ ارتفاعها ٣٥٠٠ قدم، وتقع على نقطة التقاء وادي دَفَا مع وادي ضَبْعَة في حوض بين جبال مرتفعة[٧١]. وفيها مركز حكومي صغير مات به من أثر الحمى أربعة وأربعون رجلاً من أخوياء الإمارة خلال سنتين، هنا في هذه المنطقة النائية المقفرة التي يصعب الوصول إليها، والمتفشية فيها الحمى، بين قبائل متوحشة لم يتم إخضاعها إلا قريباً، يعمل على تطبيق القانون، وحفظ النظام فيها، أمير، ومجموعة من الأخوياء، بفضل هيبة، واحترام اسم ابن سعود.

ويوجد إلى الشرق من وادي دَفَا بدو قحطان، وإلى الغرب منه توجد قبائل الرَّيْث، والعِزِّيين، وعلى طول الحدود اليمنية قبائل خولان آل تَلِيد، وقبائل بني مالك، وبَلْغَازي[٧٢]. وقد وَجَدْتُ هؤلاء القبائل مضيافة، ويختلفون في المظهر عن بدو العِرْضِيَّة، فألوانهم فاتحة، وأنوفهم معقوفة، ولحاهم بارزة، وهم يشبهون بدو وسط الجزيرة العربية، إنهم يلبسون مآزر قصيرة جدًا من القماش لا تكاد تستر عوراتهم عندما يجلسون القرفصاء، وشعورهم طويلة، ولكن أولئك الذين لم يُخْتَتَنُوا منهم بعد، يحتفظون في أعلى رؤوسهم ببقعة واسعة

---

[٦٧] يبدأ وادي عَرِيّن من عَرَاعِر التي توالي تهامة من الغرب، ويَصُبُّ في المَجْزَعَة، ومن القرى التي تقوم عليه: عراعر، والحصن، وآل المؤنس، ومدينة الظهران؛ انظر: حمزة، *في بلاد عسير*، ١٣٩.

[٦٨] العقاب أو الممرات التي تؤدي إلى تهامة، وتقع إلى الجنوب من أبها، هي : عقبة ضُلَع، وعقبة جَدْلَة (عُتوُد)، وعقبة القرون (تِمْنِيَة)، وعقبة آل الخَلَف (وادي بَيْش)، وشَرَاقِيب (رأس بَيْش) ومفتاح الخَشَبَة (وادي قَاعَة)، وعَلْب (حدود اليمن).

[٦٩] هذه الجبال بركانية، ولكن في أعلى العقبة التي يبلغ ارتفاعها ٨٠٠٠ قدم، توجد طبقة من الحجر الرملي الوردي اللون المتماسك بالكربونات.

[٧٠] تُعرف جَلَّة الموت باسم قلة الموت، وتقع بالقرب من جبل الرَّيْث إلى الجنوب من أبها؛ انظر: البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢٩٦. جبال مشيث Mushaith، هكذا وردت في الأصل، ولم أجد لها ذكرًا في المصادر الميسورة، أو على خريطة المملكة. ولعلها جبال مُشَيْط نسبة إلى بعض فروع قبيلة آل مشيط المعروفة، حيث أخبرت أن لها فروعاً هناك.

[٧١] وادي دَفَا، أحد روافد وادي بيش من شمال بلاد خَوْلَان؛ انظر: العقيلي، *المخلاف السليماني*، جـ.١، ٣٩؛ العقيلي، *المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)*، الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٩هـ، ٦١ – ٦٤.

[٧٢] عن هذه القبائل ومواطنهم؛ انظر: العقيلي، *المخلاف السليماني*، جـ.١،٨٨–٨٩؛ البلادي، *بين مكة واليمن*، ٢٨٨–٢٩٧.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

محلوقة[٧٣]. ويُؤخر الخِتَان عند هؤلاء حتى يبلغوا من سن العشرين إلى الثلاثين سنة، وربما يكونوا قد تزوّجوا، ولهم أطفال[٧٤]. وهم مسلّحون بشكل جيد، ومعظم بنادقهم صناعة إيطالية مؤرخة سنة ١٨٨٩م. إنهم يقطنون في دائرة بسيطة، ووضيعة، ويأوون إلى مساكن من الحجر الخشن المسقوف بالحشائش، وأغصان النبات، ويضعون عليها في الجوّ الرطب جلوداً مدبوغة لكي تبعد عنهم المطر، وتقي ما بداخلها من البلل، ولديهم قطعان كبيرة من الضأن، والماعز، وبعض البقر؛ ويمتلكون من الجمال أكثر مما تملكه القبائل التي إلى الشمال منهم، وينمو عندهم، في أعالي الجبال، بعض شجر البُنّ، وقليل من البُرّ، والذُّرَة، والتُّبَاك، ولكنهم بصفة عامة لا يشتغلون بالزراعة، وإنما يتاجرون بالسمن والبن في سبيل الحصول على الحبوب من أسواق تهامة، وحدود اليمن، حيث يعملون على جلب السمن على ظهور جمالهم عبر جبال شديدة الانحدار، عديمة المسالك، وبدلًا من استعمال الشِّدَاد أو الخِيّ، فإنهم يربطون الأكياس المصنوعة من جلد الماعز على ظهور الجمال فوق جلد آخر مطوي.

ويقع جبل فيفا على الحدود اليمنية، وعلى ارتفاع ٦٠٠٠ قدم، وهو مكتظّ بالمدرجات التي يُزرع فيها شجر البن، والموز وتمر البَبْو، والعنب، والرمان، والخوخ، والبرشومي، والذرة، والبر، والشعير، ويجاوره جبل بني ملك على ارتفاع ٧٦٠٠ قدم، والزراعة فيه أيضاً على شكل مدرّجات، حيث يزرع فيه شجر البن، والموز، والذرة، والبر، والشعير[٧٥]، أما إمدادات الماء فهي غير كافية في كلا الجَبَلَيْن، وعليه فإن قِرْبَة الماء الكاملة تُعْطِي في جبل فيفا في يوم السوق، مردوداً قدره أربعة ريالات.

ثم سلكنا من جَلّة الموت طريق دَفَا الذي سرعان ما تغير اسمه إلى بيش، حيث نزلت أمطار غزيرة ليلية على الجبال نتج عنها سيول متتابعة أدت إلى عرقلة رحلتنا بشكل سَيِّء؛ لأن طريقنا الوحيد يمر في مجرى الوادي، وكنا نرى القردة يومياً، وأحياناً في مجموعات كبيرة، وكذلك الأرانب البرية التي شاهدناها في كل مكان في أثناء الرحلة، وهنا تكثر، الذئاب، والضّبْعَان، والنمور الصغيرة ذات الألوان المختلفة، والوُعُول التي تختلف على الجبال، ولكن الغزلان توجد فقط في السهل الساحلي. ثم واصلنا سيرنا حول الجانبين الشرقي والشمالي لجبل الرَّيْث، حيث يَحُفّ شجر الدوم الكثيف بواد لا نهاية له، وهو يتلوى عبر تلال مجدبة وقائضة، وكانت الحرارة شديدة، والسيل المُعَكَّر بالطَّمْي، وغير الصالح للشرب يلتف حول ركبنا، وبعد وصولنا إلى السهل، استدرنا جنوباً مجتازين حَقْو، وصعدنا جبل هَرُوب، حيث كان الجَوّ بارداً على منحدرات

---

[٧٣] يذكر رفيع أن بعض قبائل هذيل القاطنة على بعد ثلاث مراحل من مكة، وجنوباً عنها مما يلي السراة يتركون علامة على شعر الصبي الذي لم يُخْتَتَن، ولا يحق له أن يرجّل شعره على عادة المختونين إلا بعد الختان. رفيع، *في ربوع عسير*، ٨٤.

[٧٤] من القبائل العسيرية التي كانت تؤخّر الختان إلى ما بعد العشرين قبيلة ربيعة الساكنة في تهامة؛ انظر: حمزة، *في بلاد عسير*، ١٠٩.

[٧٥] هنا أَعْرَضْتُ عن ترجمة سطرين من النص الإنجليزي؛ لأن ما ذكر فيهما لم يُعَدّ متحققًا اليوم على أرض الواقع، وأنه لا يضيف قيمة علمية تاريخية إلى أهمية المكان، وأهمية ما يتمتع به من تراث عريق، ومقوّمات طبيعية تؤهّله لأن يكون من أهم الوجهات السياحيّة في المملكة العربية السعودية.

الجبل الذي تقع على قممه، وتحت إكليل من السَّحَاب، أراضي العَزِّيين ومُنْجد، فهناك ينمو شجر البن، والبر، والشعير، وفي الوادي ينمو الموز، والببو.

وفي طريقنا إلى صَبْيَا مررنا بصبيا الجديدة، عاصمة الإدريسي المهجورة التي تَدَاعَى قصرها المزخرف، وتحوّل إلى خَرَائِب، وفي هذه الأيام (أيام زيارة المؤلّف إلى تلك الديار) يدور حديث عن الانتقال إلى هناك؛ لأن صَبْيَا بالي (مدينة صبيا الحاليّة) تعاني كثيراً من السيول[٧٦]. وصَبْيَا مدينة كبيرة، بيوتها من العِشَش، وبها قليل من المنازل المبنية من الحجر، وجميع القرى التي تغطي المنطقة المحيطة بها، أكبر بكثير من تلك التي في تهامة الشام، والزراعة تنتشر بكثرة حيث ينمو هنا شجر أو نبات النِّيلَة، بالرغم من أن نموّه لا يبعد كثيراً إلى الشمال، ويعمل منه الصُّبَاغ (النِّيل) في أوانٍ كبيرة على آبار القرية، ومدينة جيزان (جازان) ميناء مَخَلِّي، ومنها تُدار تهامة عسير، بينما القنفدة، وتعرف بصورة عامة باسم البَنْدَر، تخدم تهامة الشام. وكلا الميناءين متاحان فقط لرسو السَّنَابيك التي تتوقف أيضاً في البِرْك، والقَحْمَة، وهنا حضرنا سوق السبت في أم الخَشَب بوادي بَيْش[٧٧]، أحد أكبر أسواق تهامة، حيث تصنع الخُوَذ من ورق شجر الدوم(المعروف في المنطقة باسم الطُّفِي)، وهذه الحرفة من خصائص هذا الجزء من تهامة، وهي تُلْبَس من قبل الرجال، ولو أن المسنين منهم يفضلون قُبَّعَات القَشّ ذات الأهرام الواسعة والحافات العريضة (أي المَظَلاَّت أو الطَّفَشَات سابقة الذكر، وهي من الخُوص أيضًا).

عدتُ الآن إلى أبها عن طريق وادي عُتوُد، وعقبة ضُلَع السَّهْلَة، حيث يكثر الحَمَام الأخضر في هذا الوادي، وتوجد فيه أيضاً طيور الحُبَّاك، وطيور الرَّفْرَاف، والكَرَوَان، والشُّبَد أو الضُّوع، وطائر الأَبْلَق ذو اللون الأشهب والذيل الطويل، ويَشيع في هذه الجبال وجود طائر العقاب الكاسر الجناح[٧٨]، وهو يهبط عبر التلال الجبلية إلى مستوى ٢٠٠٠ قدم، وتنمو هنا أنواع كثيرة من الزهور سواء على الصخور البركانية التي تكوّن الوجه الغربي للجبل، أو على القمة الجرانيتية.

---

[٧٦] لا تزال خرائب مدينة الإدريسي قائمة حتى اليوم، وهي ذات قيمة أثريّة كبيرة، وقد قامت إدارة الآثار والمتاحف بتسويرها، وبَنَت متحفاً بالقرب من هذا المكان لحفظ آثار منطقة جازان فيه.

[٧٧] هَرُوْب، وسوقها الأحد، الحَقْو وسوقها الاثنين، صَبْيَا وسوقها الثلاثاء، أبو عَرِيْش، وسوقها الربوع، ومغزل [في الأصل مغزى]، وسوقها الثلاثاء. الدرب، وسوقها الخميس، بيش (أم الخشب)، وسوقها السبت.

[٧٨] طائر بين النسر والعقاب، ويعرف باسم كاسر العظام. وقد جاءت تسمية الكاسر من ضم الطائر لجناحيه في أثناء الانقضاض؛ انظر: ابن منظور، *لسان العرب المحيط* ، تحقيق: خياط، يوسف، بيروت: دار لسان العرب، مج.٣، ٢٥٦.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

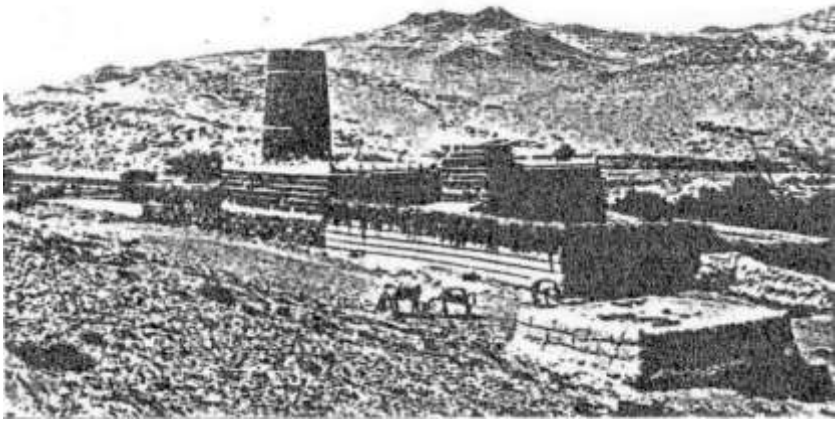

(لوحة ٦) منازل طينية مغطاة بخطوط من القرميد البارز، وبرج مبني من الحجر في عسير

ونظراً لأن الطريق الجَبَلِي إلى الطائف غير عملي لاستخدام الجمال؛ ولأن الاستئجار ينتج عنه تأخير متواصل، فقد اشتريت من أبها ثلاثة من الحمير، وكان طريقنا هذا يمتد عبر النَّمَاص، والظَّفِير على طول امتداد قمم سلسلة جبال السروات، حيث توجد عقبات كبيرة متعددة، وأضلاع لا نهاية لها من التلال المتتابعة الشديدة الانحدار، وعمومًا، فمن المستحيل عليّ، تبعًا لذلك، أن أركب؛ لذا مشينا ثلاثة أرباع الطريق إلى الطائف، حيث وجدت صعوبة في المشي على قدميّ؛ لأن حذائي تقطّعت، ولم يكن في وسعي الحصول على أخرى.

تحتوي الجبال التي خلف عقبة شَعَار على صخور جرداء، ولكن توجد بالقرب من بَيْحَان غابة كثيفة من شجر العرعر، وبعد أن تنقّلت أسفل المنحدرات الجبلية، ثم على امتداد ذرى الجبال حتى الظهران، اعتقدت أن شجر العرعر الذي شاهدته حول السودة قبل سنة كان استثناء في جبال جرداء خالية من الأشجار، ما عدا شجر الطلح المتناثر هنا وهناك، وكان عليّ الآن أن أجد ذلك إلى الشمال من أبها، إن قمة سلسلة جبال الحجاز جيدة التشجير بصورة عامة، وهي، في بعض الأماكن، كثيفة حقاً، ومكتظة بأشجار العرعر، والزيتون البري، والسُّمَّاق، والسَّنْط والطَّلْح[٧٩]. ويتراوح ارتفاع هذه الجبال بين ٦٥٠٠ – ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، بحيث يكون أقصى ارتفاعها حول السُّوْدَة، وهضبة بَيْحَان .

وعموم الصخور هنا من أصل بركاني، ولكن القليل من القمم المشهورة مكونة من الحجر الجرانيت، ومنها جبل مَنِيع في تَنُومَة، وجبل قَشْنَة، جنوب الظفير، وجبل إبراهيم في بلاد بني مالك، وجبل بَيْضَان في بلاد بني سعد، وجبل إبراهيم هذا يشاهد من مسافة كبيرة، وهو عجيب الشكل ناعم الوجه، وذو نواة جرانيتية ترتفع من هضبة بازليتة.

[٧٩] يمتد معدل الحزام، أو النطاق النباتي كما يلي: السلم، والسمر والأثل، والسدر من السهل الساحلي إلى ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، والقتاد والمقل والقرظ (وعموم الصمغيات) من ٥٥٠٠ – ٧٠٠ قدم، والطلح من ٦٥٠٠ – ٧٥٠٠ قدم، والزيتون البرى من ٥٥٠٠ – ٧٥٠٠ قدم، والعرعر من ٦٥٠٠ – ٩٠٠٠ قدم ، والورد البرى من ٨٥٠٠ – ٩٠٠٠ قدم .

ومما يُلحظ أنه من حدود اليمن إلى وادي جدرة، جنوب الطائف، تجري المياه بالقرب من سفوح الجبال، أحياناً في حدود ١٠٠ ياردة من الطرف، وقلما ترتد عنها إلى أكثر من ميل، ويلفّ تهامة سديم دائم، وهو كثيف جداً في بعض الأحيان حتى إن الجَرْف الشديد الانحدار الواقع على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم يقع كليّة تحت غشاوة تجعل رؤيته مفقودة.

وتتدني الرؤية خلال أشهر الصيف إلى أميال قليلة على السهل الساحلي، بسبب سحاب بحري عال، وتكون هذه الرؤية مستقرة في أوقات الصباح الأولى، ولكنها تنخفض خلال النهار بفعل رياح غربية قوية للغاية، تهبّ في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، وتتلاشى عند الغروب[٨٠]. وتقتصر الحياة النباتية على السفوح الشرقية؛ لأن المنحدرات الغربية الشاهقة صخرية، وتفتقر إلى التربة الصالحة، والعوامل المساعدة على الإنبات. والأعشاب غير شائعة هنا، ما عدا الورود البرية، والعوسج، وزهر العسل، وزهور الربيع المتعددة الألوان، وزهور القرنفل، والكَحْلاء، والكزبرة، والسرخس مع الحُمَّاض، والقُرَّاص (القُطْبَة أو الزُّغْب)، والبرسيم، وجميعها تنمو على امتداد الممرات، وبوفرة تشبه وفرتها في الصيف الإنجليزي، في حين تُعَطِّر نباتات الخزامي والشِّذَاب بعبقها الهواء الدافئ، ويوجد قليل من شجر الصفصاف على امتداد الأودية، وكلما أمكن فإن جانبي الجبال والأودية مزوّدة بمدرّجات تنمو عليها محاصيل البر، والشعير، والسَّيَّال، والذرة[٨١].

وتعتمد هذه الزراعة على الأمطار، ما عدا قليل من الحقول، غالباً حقول البرسيم التي تُسقى عن طريق الآبار، حيث يرفع منها الماء، بواسطة الحيوانات، في غُرُوب جلدية جمع: (غَرْب) تَتَدَلّى إلى البئر على بكرة يحملها قائمان (سَانِيَة)[٨٢]. وهي الطريقة الوحيدة المتّبعة في رفع الماء من الآبار بغرض الرَّي، سواء في الحجاز، أم في تهامة، وتنمو أشجار الكروم بشكل مألوف على عروش فوق هذه الآبار، ويُزرع البطاطس، والطماطم، والكوسة في المنطقة المحيطة بالنَّمَاص، وتسقط الأمطار في أي شهر، ولكنها أكثر اعتياداً بين نوفمبر ويناير، أو في أغسطس وستمبر، وقد كان ثمَة مطر حديث إلى الجنوب من النماص عندما مررت بها، ولكن إلى الشمال لم تكن هنالك إلا زخّات خفيفة فقط منذ شهر نوفمبر.

---

[٨٠] تُسمى هذه الرياح محليًّا باسم الغُبْرَة، وهي تهبّ على المنطقة في شهري يونية ويوليو من كل عام؛ انظر: العقيلي، *مقاطعة جازان*، ١٧.

[٨١] فى الأصل: سيلان.

[٨٢] السَّانِيَة (جمع سَوَانِي، أو بالأصح سَوَانٍ)، كانت وسيلة الري الوحيدة في المنطقة عن طريق الآبار، وقبل انتشار المضخات الحديثة؛ انظر:

MUGHRAM, M. A., «Assarah, Saudi Arabia», *PhD. Thesis*, University of Durham, 1973, 75; AL-ZAYLAʿĪ, «The Southern Area of the Amirate of Makkah», 195.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

وقبائل شمال عسير (أي شمال أبها) هم: بَللَّحْمَر، وبَلَلَّسْمَر، وبنو عَمْرو، وبنو شَهْر الذين يسكنون حول النَّمَاص، وهذه القبائل الأربع تُعرف جميعاً باسم رجال الحَجَر (الحَجَارِيَة)[٨٣]. وهم يسكنون في منازل متعددة الأدوار، مبنية من كتل كبيرة من الحجر المشذّب، ومكسوّة أحياناً بغطاء من الجصّ الأبيض، ومزخرفة، حسب العرف السائد في بلاد الحجاز، بنماذج من المَرْو مثبتة حول النوافذ الضيقة، وتسكن القبائل الواقعة خلف النماص في بيوت بُنيت بضخامة، وتتكون من طابق واحد، ولها في الغالب فتحات ذات أحجام كبيرة، وسقوفها تستند إلى صف من دعائم عُمِلَت من خشب العَرْعَر، والطَّلْح المزخرف بنماذج محفورة، والمطلي بالقار الأسود، وفي بعض الأحيان، يسكنون في غرف أصغر، بُنيت فوق حظائر الماشية، ومعظم هذه البيوت تختفي خلف جدران عالية مفرغة، وفي الجو الدافيء ينامون في العراء فوق سطوح مكشوفة، أما بالنسبة لحشرات البَقّ، والبراغيث فهي شائعة في البيوت في هذه الجبال .

وصلنا النماص في يوم الاحتفال بالختان، وهذه القبائل تقتصر فقط في احتفالاتها بهذه المناسبة على اليوم الذي يسبق هذه العملية والتي تتم لصبية من سن العاشرة إلى الثانية عشرة سنة، إنهم يحتفون بجميع القادمين على عكس الاحتفال في وادي حلي[٨٤]، فقد ظهر هنا نحو ١٥٠ فردًا من رجال القبائل مسلّحين ببنادق المَسْكِيْت التي لاتُطلق بواسطة زناد، وإنما بواسطة فتيل بطيء الاشتعال، ثم انقسموا إلى أربع فرق، واندفعوا مسرعين وفي تتابع مستمر إلى جَرِين خَالٍ، حيث أخذوا يرمون بنادقهم عاليًا في الهواء، ثم أطلقوا وابلاً من النار المحتدمة، وتراجعوا ليعيدوا تعبئة بنادقهم مرة أخرى، بينما اندفع أفراد الفريق التالي بِخِفّة، وهم يلبسون أفخر ثيابهم، ويتمنطقون بحلية من قنائن البارود الفضيّة، ويتزينون بأكسية أخرى مزركشة. فكانوا في منظر بطولي عبر دَوّامَة من سُحُب الدخان، وجماهير كثيفة من المتفرجين الذين يغطون الأسقف والسطوح المجاورة، وهم يصمّون الآذان بضجيج لا نهاية له.

[٨٣] نسبة إلى الحجر بن الهنو بن الأزد من قحطان، وعن هذه القبائل وتسميتهم بهذا الاسم؛ انظر: العمروي، عمر غرامة، *المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (بلاد رجال الحجر)*، الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٧–١٣٩٨هـ، ٥١ وما بعدها؛ النعمي، *عسير في الماضي والحاضر*، ٤٦، ٥١؛ حمزة، *في بلاد عسير*، ١٥٧ وما بعدها.

[٨٤] تسمى الولائم التي تقدم يوم الختان في منطقة القنفدة باسم القِرَى، وفي جازان تسمى الجَبْر؛ أنظر: العقيلي، الأدب الشعبي، ٣٢، وغالبًا لا يقوم بها آباء المختونين وحدهم، بل يتضامن معهم كل أفراد القبيلة، ويفرقونها بحسب الرأس فيما يُعرف باسم "الفَرْقَةُ". ولا ينبغي أن تؤخذ هذه العادة مقياساً للكرم عند المقارنة بين قبيلة وأخرى كما فعل المؤلف. فبعض القبائل المستقرة، ولا سيما في منطقة القنفدة عملت على إبطالها أي إلغائها، لما فيها من البذخ والتبذير والخسائر الكبيرة، وعقدت فيما بينها اتفاقيات لهذا الغرض تُعرف باسم "المُرَابَطَة" يُغَرَّمُ المخالف بمقتضاها غرامة كبيرة قد تنوف على تكاليف هذه الولائم، ومن القبائل التي أبطلت ولائم الختان قبائل ساحل حلي، وحاضرة وادي يَبَة، في حين أنها تقام بين قبائل شرق وادي يَبَة وقَنُوْنَا، والمناطق الواقعة إلى الشمال منها، ولكنها في الوقت الحاضر لم يَعُدْ لها وجود.

وبعد أن ارتحلنا على امتداد بلاد بَلْقَرْن، وخَثْعَم[٨٥]، دخلنا منطقة غامد التي تُدار مركزيًّا من الظَّفِير، وهي قرية صغيرة بُنيت حول قلعة، وسوقها الثلاثاء، ومنها يوجد منظر جميل لجبل شَدَا الشامي (شَدَا الأعلى) الذي يشكل إطارًا عند نهاية الوادي، لقد وجدت قبيلتي غامد وزهران، بشكل ظاهر، من أكثر قبائل الحجاز إكراماً للضيوف[٨٦].

ولا توصد الأبواب بين القبائل المضيافة في أغلب الأحيان، والضيوف يدخلون المنزل حتى إذا كان صاحبه خارجًا عنه، ويجعلون أنفسهم كأنهم في بيوتهم[٨٧].

وصلنا الطائف في الرابع والعشرين من شهر يونية، بعد أن غطينا من أبها ٣٠٠ ميل، قطعناها في ستة عشر يومًا من السير، فقد وصلنا النماص في أربعة أيام، والظفير في ستة أيام أخرى، مضافاً إلى ذلك ستة أيام إلى الطائف، ويوجد قليل إلى الشرق من الظفير طريق إضافي للجمال، يصل الطائف في أربعة أيام ونصف. ولكنه يستلزم حمل الماء لمدة يومين؛ لأن الماء ضروري في كل مكان من هذه الجبال، لقد سافرنا بجد، وبمعدل نحو عشر ساعات يومياً على الطريق، وبالرغم من أن طعامنا غير المتنوع كان يتكون من خبز البر المغموس في الزبد، وأحيانًا صحن من التمر إلا أنني بقيت لائقًا جدًا.

أمراء المناطق والمراكز الذين قابلتهم خلال هذه الشهور الثلاثة، قدموا لي كثيراً من المساعدة، وكرم الضيافة التي اشتهرت به الجزيرة العربية، وقد سافرت بين قبائل كثيرة لم يقابل أهلها إلا قليلاً من الإفرنجيين والمسيحيين، هذا إذا كانوا قد قابلوا أيًا منهم، وكنت دائماً أُسْتَقْبَل استقبالاً جيداً؛ لأن المسافر الذي يسافر[في هذه البلاد بإذن من ابن سعود يُتَكَفَّل له في كل مكان بالأمن والمساعدة.

لقد تكرم السيد هـ. سانت ج. ب فيلبي بمقابلة وتصحيح كتابة الحروف العربية بالحروف اللاتينية لجميع الأسماء العربية في هذا المقال، فأنا معترف بجميله وفضله على مباشرته لهذا العمل، خاصة بعد أن

---

[٨٥] بَلْقَرن وخَثْعَم من قبائل السراة المعروفة؛ أنظر: حمزة، *قلب جزيرة العرب*، ١٤، ١٩٠؛ كحالة، معجم *قبائل العرب*، جـ.١ ، ١٠٣-١٠٤، ٣٣١.

[٨٦] فيما يلي أقسام قبائل زهران وهم: بَيَضَان، وبنو حَسَن، وبَلْخَزْمَر (بنو الخَزْمَر)، وبنو كنانة، وبنو عامر (في الأصل عمرو)، وبنو عُمَر، وبنو عُدْوَان، وقريش (المترجم) عن هذه القبائل وغيرها من قبائل زهران؛ انظر: السلوك، *بلاد غامد وزهران*، ٢٥٤ – ٢٥٨. (المترجم) المعروف عن قبائل بلقرن وخثعم أنها من القبائل المضيافة، ولا يمكن أن تُؤخذ تجربة المؤلف الشخصية وسيلة لتعميمها على هاتين القبيلتين المشهورتين بكرم الضيافة.

[٨٧] هنا أَعْرَضَت عن ترجمة بِضْعَة أسطر من النص الإنجليزي؛ لما قد يكون الْتَبَس على المؤلف ما يقع أحيانًا من عدم الرضا (الرضى) عن تعامل بعض العاملين في محطات الطرق مع الحجاج، وعموم المسافرين وإلصاق ذلك ببعض القبائل المعروفة التي اجتاز المؤلف ديارهم، والحقيقة أن كل القبائل الذين ذكرهم، يشتهرون بكرمهم، وحسن ضيافتهم، ويجب ألا يغيب عن البال أن المؤلف كان –حينذاك– في آخر رحلته، وكان يسير بجد للوصول إلى الطائف، فربما كان اتصاله فقط بالمقاهي، والمحطات التي تقوم على الطرق، والتي يعيش أهلها على ما يحصلون عليه مقابل تقديم الخدمات للمسافرين، وليس بالضرورة أن يكون العاملون في تلك المقاهي من القبائل التي ذكرها المؤلف؛ لأن هذه الأعمال كانت حتى عهد قريب، تستعيبها القبائل المذكورة على طول الطرق التي سلكها المؤلف..

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

رأى عددًا من الأخطاء التي كانت موجودة حقًّا، كما أودّ أيضًا أن أعترف بجميله في وضع مخطط رحلته من جازان إلى اللّيث بين يديّ، وسماحه لي بأن أضيف جزءًا كبيرًا منها إلى خريطتي[٨٨].

مجموعة من النباتات التي تم جمعها في أثناء هذه الرحلة هي في المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي).

[٨٨] ارتحل فيلبي من جازان إلى الليث مروراً بالقنفذة في سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦، وقد دوّن وصف هذه الرحلة والأماكن التي زارها في كتابه *Arabian Highiands*, 684 – 706.

المصادر والمراجع:

- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، *لسان العرب المحيط*، إعداد وتصنيف يوسف خياط، بيروت: دار لسان العرب، ١٩٨٨.
- البركاتي، شرف بن عبد المحسن، *الرحلة اليمانية*، القاهرة: مطبعة السعادية، ١٣٣٣هـ / ١٩١٢.
- البلادي، عاتق بن غيث، *بين مكة واليمن*، مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- الجاسر، حمد، في سراة غامد وزهران، الرياض: دار اليمامة، ١٣٩١هـ / ١٩٩٧ م.
- حمزة، فؤاد، *في بلاد عسير*، القاهرة، ١٩٥١م.
- .....، *قلب جزيرة العرب*، ط.٢، الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٣٨٨هـ.
- رفيع، محمد عمر، *في ربوع عسير*، القاهرة: دار العهد الجديد، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.
- الزهراني، محمد مسفر، *بلاد زهران*، ط.١، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ.
- الزيلعي، أحمد بن عمر، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي"، *حوليات كلية الآداب/ جامعة الكويت*، الرسالة التاسعة والثلاثون، الحولية.٧، الكويت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- .....، *مكة وعلاقاتها الخارجية* (٣٠١/ ٤٨٧هـ)، الرياض: جامعة الرياض عمادة شؤون المكتبات، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- السلوك، علي بن صالح، *المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد غامد وزهران)*، بيروت: دار اليمامة بالرياض، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- شاكر، محمود، *شبه جزيرة العرب (عسير)*، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- العقيلي، محمد بن أحمد عيسى، *الأدب الشعبي في الجنوب*، الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
- .....، *المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ*، الرياض: مطابع الرياض، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.
- .....، *المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)*، الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- العمروي، عمر غرامة، *المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (بلاد رجال الحجر)*، الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٧هـ-١٣٩٨هـ.
- الغنيم، عبد الله يوسف، *جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري*، ط.١، الكويت: مجلس النشر العلمي / جامعة الكويت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- كحالة، عمر رضا، *معجم قبائل العرب القديمة والحديثة*، بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م.
- المقدسي، محمد بن أحمد البشاري، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، ط.٢، ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦م.
- النعمي، هاشم بن سعيد، *عسير في الماضي والحاضر*، جدة: مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، ١٤١٩هـ.
- الهمداني، الحسن بن أحمد، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- الواسعي، عبد الواسع بن يحيى، *تاريخ اليمن*، اليمن: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ياقوت، أبو عبد الله الحموي، *معجم البلدان*، بيروت: دار صادر، ١٩٥٥م – ١٩٥٧م.

References:

- ABDULFATTAH, K., *Mountain Farmer and Fellah in Asir Southwest Saudi Arabia,* Erlangen, 1981.
- AL-BALĀDĪ, ʿĀTIQ BIN ĠAYṮ, *Bayn Makkah waʾl-Yamman,* Makkah: dār Makkah liʾl-Ṭibāʿa waʾl-našr, 1404/ 1984.
- AL-BARAKĀTĪ, ŠARAF BIN ʿABD AL-MUḤSIN, *al-Riḥla al-Yamanīya*, Cairo: Maṭbāʿat al-saʿādīya, 1333/ 1912.
- AL-ĞĀSIR, ḤAMAD, *fī Sirāt Ġāmid wa zahrān*, Riyadh: Dār al-Ymāma, 1391/1997.

Doi: 10.21608/jguaa.2024.248711.1319

- AL-ĠUNĪM, ʿABD ULLAH YŪSUF, *Ğazīrit al-ʿArab min Ktāb al-Mamālik waʾl-Masālik liʾAbī ʿAbīd al-Bakrī*, 1st ed., Kuwait: Mağlis al-našr al-ʿIlmī/ Kuwait University, 1397/ 1977.
- AL-HAMADĀNĪ, AL-ḤASAN BIN ʾAḤMAD, *Ṣifat Ğizirit al-ʿArab*, Reviewed by: Muḥammad bin ʿAlī al-ʾAkwaʿ, Riyadh: dār al-yamāma, 1394/ 1974.
- AL-MAQDISĪ, MUḤAMMAD BIN ʾAḤMAD AL-BAŠĀRĪ, *ʾAḥsan al-Taqāsīm fī Maʿrifat al-ʾAqālīm*, 2nd et., Leiden: Maṭbaʿat birīl, 1906.
- AL-NAʿMĪ, HĀŠIM BIN SAʿĪD, *ʿAsīr fī al-Māḍī waʾl-Ḥāḍir*, Jeddah: Mūʾasasat al-ṭibāʿa waʾl-ṣaḥāfa waʾl-našr, 1419.
- AL-SALŪK, ʿALĪ BIN ṢĀLIḤ, *al-Muʿğam al-Ğuġrāfī liʾl-Bilād al-Suʿūdīya (Bilād Ġāmid wa Zahrān)*, Beirut: Dār al-Yamāma biʾl-rīāḍ, 1391/ 1971.
- AL-ʿUMRAWĪ, ʿUMAR ĠARĀMA, *al-Muʿğam al-Ğuġrāfī liʾl-Bilād al-Suʿūdīya (Bilād Riğāl al-Ḥağar)*, Riyadh: Dār al-yamāma, 1397-1398.
- AL-ʿUQĪLĪ, MUḤAMMAD BIN ʾAḤMAD ʿĪSĀ, *al-ʾAdab al-Šaʿbī fī al-Ğanūb*, Riyadh: Dār al-yamāma, 1392/ 1972.
- ……., *al-Miḥlāf al-Silīmānī ʾAw al-Ğanūb al-ʿArabī fī al-Tārīḫ*, Riyadh: Maṭābiʿ al-Rīāḍ, 1378/ 1958.
- ……., *al-Muʿğam al-Ğuġrāfī liʾl-Bilād al-Suʿūdīya (Muqāṭʿit Ğāzān)*, Riyadh: Dār al-yamāma, 1389/ 1969.
- AL-WĀSʿĪ, ʿABD AL-WĀSIʿ BIN YAḤYĀ, *Tārīḫ al-Yaman*, Yemen: al-Dār al-yamanīya liʾl-našr waʾl-tawzīʿ, 1402/ 1982.
- AL-ZAHRĀNĪ, MUḤAMMAD MISFIR, *Bilād Zahrān*, 1st ed., Makkah, 1390.
- AL-ZAYLAᶜĪ, A. U., «The Southern Area of the Amirate of Makkah (3rd-7th/9th-13th Centuries) Its History Archaeology and Eqigraphy», *Ph.D. Thesis*, University of Durham, 1983.
- ……., «al-Mawāqiʿ al-ʾIslāmīya al-Mundaṯira fī wādī Ḥulī», *Ḥawlīyāt college of Literature/ Kuwait University 39*, №.7, Kuwait, 1406/ 1986.
- ……., *Makkah waʿIlāqātihā al-ḫārīğīya (301/ 487)*, Riyadh: Ğāmiʿat al-rīāḍ ʿImādit Šūʾūn al-maktabāt, 1401/ 1981.
- CORNWALLIS, K., *Asir before World War I*, University of Michigan: Oleander, 1976.
- ḤAMZA, FŪʾĀD, *fī Bilād ʿAsīr*, Cairo, 1951.
- ……., *Qalb Ğizīrit al-ʿArab*, 2nd ed., Riyadh: Maktabat al-naṣr al-ḥadīṯa, 1388.
- ʾIBN MANẒŪR, MUḤAMMAD BIN MAKRAM BIN ʿALĪ, *Lisān al-ʿArab al-Muḥīṭ, Done by: Yūsuf Ḫayāṭ*, Beirut: Dār lisān al-ʿArab, 1988.
- KAḤALA, ʿUMMAR RIḌĀ, *Muʿğam Qabāʾil al-ʿArab al-Qadīma waʾl-Ḥadīṯa*, Beirut: dār al-ʿalam liʾl-malāyyn, 1388/1968.
- MANSFIELD, P., *The Arabs*, 1st ed. Cox & Wyman Ltd, London, 1977.
- MUGHRAM, M.A., «Assarah, Saudi Arabia », *Ph.D. Thesis*, University of Durham, 1973.
- PHILBY, H. St. B., «The Land of Sheba», *The Geographical Journal*, VOL 92, London: The Royal Geographical Society, 1938, 1-21, 107-32.
- PHILBY, H. ST. J.B., *Arabian Highlands*, New York Cornell University Press, 1952.
- RAFĪʿ, MUḤAMMAD ʿUMAR, *fī Rubūʿ ʿAsīr*, Cairo: Dār al-ʿahd al-ğadīd, 1373/ 1954.
- RUTTER, E., *The Holy Cities of Arabia*, 1st ed., The Westminster Press, 1928.
- ŠĀKIR, MAḤMŪD, *Šibh Ğazīrit al-ʿArab (ʿAsīr)*, Damascus: al-Maktab al-ʾIslāmī, 1396/ 1976.
- WEEVER, J., *Sheba's Daughters*, Whitening and Demonizing the Saracen Woman in Medieval French Epic, London: Routledge, 1998.
- YĀQŪT, ʾABŪ, ʿABD ULLAH AL-ḤAMAWĪ, *Muʿğam al-Bildan*, Beirut: Dār ṣādir, 1955-1957.